أربعون هرماً من مصر

وما يجاورهم

فوتوغرافيا: شريف سنبل نص: بيتر سنودون ترجمة: بهاء چاهين



أربعون هرماً من مصر
وما يجاورهم

فوتوغرافيا: شريف سنبل **نص:** بيتر سنودون

ترجمـــة: بهاء چاهين

الكتاب الأصلى: 40 Pyramids of Egypt and their neighbours

فوتوغرافيا: شريف سنبل

النص باللغة الإنجليزية: بيتر سنودون.

الترجمة إلى اللغة العربية: بهاء چاهين.

يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من الناشر (المكتبة القانونية) للهيئة المصرية العامة للكتاب.

رقم الايداع/ ٨٦٢٠

التاريخ / ٢٠٠٧/٤/١٦

ISBN: ٩٧٧-٤١٩-٦٩٠-٢

سنودون، بيتر ٤٠ هرماً مصرياً وما حولها / بيتر سنودون ؛ ترجمة بهاء چاهين

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧

٩٦ ص ؛ ٢٨ سم

تدمك ٢ ٩٧٧٤١٩٦٩٠

١- الاثار الفرعونية

أ/ چاهين ، بهاء (مترجم)

٩١٣,٣٢

إهـــداء

إلى ريج وجوان سنودون،

اللذين يشجعانني على السفر ورؤية الدنيا دون أن يدركا مدى جدية تعلقي بهما.

بيتر سنودون

إلى سامية وهنا سنبل،

جزاء تأييدهما الذي لا يتزحزح لكل ما يعن لي من مشاريع .. حتى وإن كانت مجنونة.

شريف سنبل

شكر وتقدير

أحب أن أعبر عن صادق امتنانى للآتية أسماؤهم، الذين لم يكن فى استطاعتى إكمال العمل دون مساعدتهم:

ناصر الأنصاري، الذي كان دائماً سباقاً، وأعطانا الفرصة لأن ننشر هذا الكتاب بالعربية، وليكون أول كتاب مصور يصدر باللغة العربية عن الأهرامات.

زاهي حواس، أشهر علماء المصريات فى التاريخ، والذي عرفته منذ أن كان مديراً لمنطقة الأهرامات، والذى لم يأب أبدًا على مصور فوتوغرافى فرصة اقتناص جمال كنوز مصر.

شيرلي جونستون، لإرشادها القيم في عالم الكتب المصورة.

مشيرة موسى، الصديقة العزيزة، التي يسرت الكثير من الصعوبات.

كارولين وبروس لودويج، اللذان أتيحت لي الفرصة أن أستكشف معهما العديد من كنوز مصر.

محيي الدين اللباد، الذي أبدع شعارنا بكرمه.

منصور بوريك، صديق حميم عرفته منذ بداية عملى منذ ثلاثين عاماً وأدين بالكثير لقدراته التنظيمية وصلاته القيمة.

إيهاب قديس، لكرمه وتعاونه الدائمين.

فيليبا سكوت، لمنحها جزءًا من وقتها الثمين من أجل تقديم نقد بناء للمسودة الأولى.

جانيت فويل، لرأب الصدع وإنتاج مادة بحثية رائعة فى مهلة قصيرة بما لا يُصدق.

محمد أبو اليزيد، لجهده الدائب الذي لا يكل من أجل أن يوصلني للشخص المناسب في الوقت المناسب.

نيفين العارف، لاتصالاتها ونصائحها السديدة.

منال عبد الحميد، لدعمها الذي لا يتزعزع لسنوات طويلة، رغم انشغالها الهائل بمسئوليات الولادة والأمومة.

نورا بدران، ورشا شنب لدعمها الذي لا يعرف الكلل ولجهودهما من خلف الديكورات.

رومانى مريد، شكراً لحرفيتك، وإمكانية الاعتماد عليك، و لمعالجتك الفنية للصور التي اختيرت لهذا الكتاب.

وائل عبد الحميد، الذى أقدره كفنان موهوب وأود الإعراب عن شكري له عن صبره الذى لا ينفد وقدرته على الخروج بنتائج رائعة تحت ضغوط شديدة.

هبة ذهنى، لمعاونتها فى تسويق الكتاب.

صبحي عبد المسيح، لنصائحه القيمة فيما يتعلق بالنواحى المحاسباتية.

وشكر خاص استثنائي، لهنا سنبل، مساعدتي الحبيبة.





محتويات الكتاب

٦ المقدمة
بناة الأهرام مازالوا هنا

٨ الجيزة
هيرودوت كان مخدوعًا

٢٠ أبو صير
نسج مدائح الشمس

٢٦ سقارة
الصعـود والأفـول

٣٦ دهشور
الأسود . . . والأحمر . . . والمحنى

٤٢ الفيوم
تخرج من قصر التيه. . لتجد الساقية

٤٨ المنيا
هنا يرقد الجميع في عناق

٥٤ سوهاج
معارك الموتى

٦٤ الأقصر
إله يتخفى . . . وقبور تختبئ

٧٦ إدفو
الصقر. . والربابة

٨٦ أسوان
المعبد القائم فى آخر العالم

بناة الأهرام مازالوا هنا

"أول لمحة للهرم يراها معظم المسافرين مطلين من نافذة القطار القادم بهم من الإسكندرية، وهى لمحة خالية مما يثير الإعجاب أو العجب. فهى لا تبهر المرء كما يحدث عند رؤيتنا لجبال الألب مثلاً للمرة الأولى من الموقع المرتفع للنوف شاتو، أو عند رؤيتنا للإطار الخارجي لمبني الأكروبوليس في أثينا عند اقتراب السفينة من الشاطئ. فتلك الأشكال المثلثة الشهيرة تبدو هزيلة وشاحبة، ومألوفة إلى حد العجز عن إدهاشنا. نفس الشيء - في اعتقادي - ينطبق على أية لمحة لها من بعيد. أعني أية لمحة من مكان يبلغ من البعد قدرًا لا يسمح لنا برؤيتها في سياق ما يحيطها من أشياء. فكل خطوة نقترب بها منها يتعاظم معها حجمها باطراد، فنبدأ عند ذلك فقط ندرك كم أنها بعيدة كل البعد عن كل ما هو شائع أو مألوف".

"لكن عندما نبلغ أخيرًا حافة الصحراء، ونصعد منحدر الرمال الممتد، ونرتقي الهضبة الصخرية، و يرتفع ويتعملق فوق رءوسنا الهرم الأكبر في كل جلاله وكتلته التي تفوق ضخامتها أكثر توقعاتنا إمعانًا في المستحيل، كل هذا يفاجئنا بقدر ما يثير هوسنا ويسلبنا لبَّنا. فتلك الكتلة الهائلة تحجب السماء وخط الأفق، كما تحجب كل الأهرامات الأخرى بل تحجب كل شيء عدا ما تبعثه فينا من رهبة ودهشة وتعجب". في القرن الحادي والعشرين، ستكون في الأغلب نظرة المسافر الأولى لأهرامات الجيزة من مقعد ضيق في أتوبيس سياحي مكيف الهواء، أو من المقعد الخلفي لسيارة أجرة قاهرية، بينما يصطفق الباب، وتنساب التلاوة القرآنية من مسجل السيارة. إلا أن التأثير الكلي لن يختلف في الغالب عن الانطباع الذي وصفته مسافرة بريطانية من العصر الفيكتوري اسمها "اميليا إدواردز" منذ ما يزيد عن ١٣٠ عامًا. خيبة الظن الأولى، التي تضخمها ضجة المرور والأسراب الكثيفة لبائعي التذكارات، ثم تحولها السريع إلى إعجاب يبلغ حد العجب والذهول ينمو ويتضخم باطراد إزاء ذلك الجلال المحض للآثار في حد ذاتها.

إلا أن برغم الضوضاء والتزاحم فيما يحوطها مباشرة، ليست أهرامات الجيزة إنجازًا منعزلاً هائمًا في صحراء حضارية. فمثلها مثل كل الآثار فائقة الروعة لمصر القديمة، هى ببساطة تجليات أولى لمجتمع حي وخلاَّق، وهو نفس المجتمع الذي مازال يعيش قدرًا شديد الغنى ومليئًا بالصراع عند سفحها. لذلك حين نزور الأهرامات متجاهلين جيرانها المعاصرين فإننا لا يفوتنا - فحسب - الكثير من العمق الإنساني، بل إننا أيضًا نتجاهل تراثًا متصلاً لم ينقطع مازال يربط حاضر الأمة بماضيها البعيد. يسكن مصر أكثر من مائة هرم، انهار عديد منها أو اختفى منذ زمن بعيد، تاركة مجرد أثر طفيف على الرمال لوجودها فيما مضى. والصور الفوتوغرافية في هذا الكتاب هى لأهرامات استطاعت أن تصمد في وجه النهب وعواصف الرمال ونهش الزمن ولم تزل واقفة.

الصحراء الوحيدة في مصر هى تلك التي تصنعها الرمال والريح والنجوم، كل ما عدا ذلك في مصر وناسها يحفل بحيوية زاهية عارمة لا يمكن كبتها. فحين تتأمل جيدًا الظل المرسوم لفخراني عاكف على عجلته، أو الخطوة المختالة لخيال يستوي دون سرج على فرسه، أو تلك اللمعة في عين مراكبي يساعدك على ركوب قاربه، ربما تلمح ساعتها أسلافهم الغائبين إلا أنهم شديدو الحضور - سيتي ورمسيس، والمقاتلين الذين طردوا الهكسوس من الدلتا، وخنوم. ذلك الإله الذي برأ البشرية من الطين بيديه العاريتين، أو رع إله الشمس الذي كان يعبر السماء بمركبه كل يوم، والذي كرّس له العديد من ملوك مصر أكثر آثارهم بقاءً. الأهرامات.

الوزير مريروكا من الأسرة السادسة يخطو بقوة وجرأة إلى خارج أرض الموتى ليمسك بالزائر الحديث لمقبرته - في سقارة - من تلابيبه. وذلك بعد أن اقتلع لصوص المقابر القدماء عينيه.



هيرودوت كان مخدوعًا

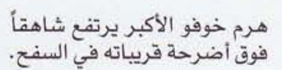
"ثم اعتلى خوفو العرش، وانغمس في كل ألوان الرذيلة. لقد أغلق المعابد وحرم على المصريين تقديم القرابين، وأرغمهم على السخرة في أعماله. لقد أخذ تعبيد الطريق التي تنتقل عبره الأحجار عشر سنين ومائة ألف رجل، واستغرق بناء الهرم نفسه عشرين عاماً. وخلف خوفو أخوه خفرع، وبنى مثله هرمًا، إلا أن هرمه لم يعدل في الضخامة هرم أخيه. وأنا على يقين من هذا، فقد قستهما بنفسي. ولقد كره المصريون ذكري هذين الملكين ومقتوها أشد المقت، حتى أنهم يعافون عن ذكر اسمهما".
إن ما رواه هيرودوت عن بناء أول هرمين على هضبة الجيزة يبلغ من الشهرة قدر ما يبلغه من الخيال. والهرم الثاني المذكور فيما اقتطفناه هنا من هيرودوت بناه في الواقع خفرع بن خوفو لا أخوه. وكل ما تبقي لنا من خوفو هو أنه الرجل الذي تخيل وأمر ببناء أعظم عجيبة في الزمان القديم - الهرم الأكبر.

الفصل الأول

من السهل أن تكون هناك مفاهيم خاطئة لأهرامات الجيزة. فهذا الأثر الذي بدا من الضخامة في عين هيرودوت أن رآه ظاهرة چيولوچية أكثر مما هى إنسانية، كان لابد أن يعتبره نتاجًا لقسوة تتجاوز أيضًا ما هو إنساني. وبالمثل، يظن الزائر الحديث حين يرى تلك الأبنية بادية الكمال للوهلة الأولى أنها الإنجاز الذي هو بمثابة الذروة وتاج الفخار لحضارة ناضجة، بينما الواقع يقول إنه حين بدأ خوفو العمل في تشييد أثره هذا في منتصف الألفية الثالثة قبل الميلاد، كان الشكل الهرمي لا يزال قالبًا فنيا في مرحلة التجريب أما المحاولات السابقة التي كانت ترمي إلى إقامة شكل مثلث كرأس رمح مصوب إلى الصحراء فإما أنها لجأت إلى "الغش" مستخدمة التصميم المدرج الذي كان قد بلغ ذروته بهرم زوسر في سقارة، أو فشلت، ولم يصمد للزمن من الأهرام ملساء الجوانب التي سبقت هرم خوفو إلا الهرم الأحمر بدهشور، بينما انهارت كل الأهرامات التي سبقته من ذلك الطراز أو اختل بناؤها بدرجات متفاوتة حتى قبل الانتهاء من تشييدها.
لكن الانتقال من الهرم المدرج إلى الهرم "الحق" لم يكن مجرد مسألة طموح متنام أو نضوج تقني. فالهرم الحق هو في المحل الأول إنجاز أعظم من حيث التنظيم، لم يتطلب دقة أكبر في التخطيط فحسب، ولكن قوة عمل أضخم بكثير. ولم يكن أولئك العمال عبيدًا كما كان يظن هيرودوت، بل معظمهم كانوا مزارعين يتم تجنيدهم في موسم الفيضان حين تكون الأرض مغمورة بالماء: ذلك بالإضافة لقوة عمل مركزية ذات مهارات تخصصية كانت تنمو باطراد، وهى الفئة التي تقوم بالمهام التقنية. وكانوا يقيمون في معسكر دائم بجوار موقع البناء. وفي اعتقاد زاهي حواس - عالم الآثار المصري العظيم الذي قام بأعمال حفر وتنقيب شاملة في هضبة الجيزة - أن خوفو لابد أنه استعان بما لا يقل عن خمسة آلاف عامل مقابل أجر ثابت ويشتغلون في المشروع بشكل دائم، بينما كان يعاونهم عشرون ألف عامل موسمي. وربما كان يتم تجنيد بعض المزارعين، لكنهم احتفظوا بحرية العودة لحقولهم بمجرد أن ينحسر الماء عنها ويبدأ موسم الفلاحة، وكلما زاد العمال، زادت متطلبات تسكينهم وإطعامهم، وزادت المسافة التي كان عليهم أن يقطعوها ليصلوا إلى الجيزة. وكان هذا بدوره يعني عددًا أكبر من البيروقراط، ووسائل اتصال أسرع، وسجلات توثيق أفضل. نفس الشيء ينطبق على الخامات. فكثير من صخور اللب كان يتم تجهيزه على الهضبة، لكن مدخلات أخرى كانت تأتي من كل أنحاء ذلك البلد الواسع، بل حتى من لبنان. وإذا كان الهرم الأكبر دون شك نصرًا للمعمار كفن، فإنه في ذات الوقت دليل ملموس على القوة التي كانت في يد الدولة المركزية حديثة النشوء في مصر.

الأهرامات تتلوى كالحية على هضبة الجيزة، فيما وصفه البعض بأنه محاكاة لحزام أوريون.



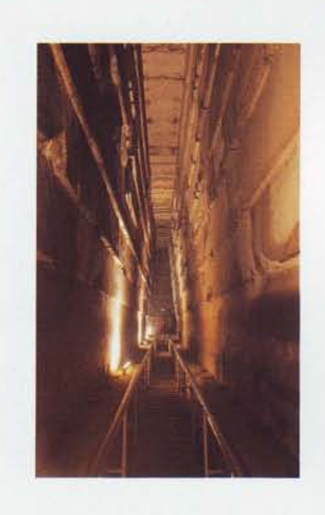




هرم خوفو الأكبر يرتفع شاهقاً فوق أضرحة قريباته في السفح.

(في الأسفل) الرواق العظيم للهرم الأكبر وسقفه "المطنَف" الرائع.

وواكب الانتقال من الهرم المدرج للهرم الحق نقلة موازية في الوعي الديني لحكام مصر تزامنت مع صعود مذهب عبادة الشمس، كان الملوك السابقون يطمحون إلى الانضمام لمجمع الآلهة كما ينضم نجم جديد لكوكبة سماء الليل. أما الآن فإن الفرعون يخطط أن يقضي الأبدية مرتحلاً في السماء بصحبة رع كبير الآلهة في قاربه الشمسي. وقد كشفت بعض أعمال الحفر حول موقع هرم خوفو عن بقايا مركبتين شمسيتين شديدتي الروعة، وقد أعيد تجميع أجزاء إحداهما ويعرض الآن بالمتحف الموجود بجوار الأهرامات، وكان عصر بناء الأهرامات هو أيضًا العصر الذهبي لهليوبوليس. مدينة الشمس. وقد اختار خوفو أن يشيد مقبرته في المكان الذي كان المصريون يسمونه ببساطة "إمنتت" (Ementet) أو "الغرب". وكان الموقع في الأصل صخرة مهيبة من الحجر الجيري بعيدة بعض الشيء عن الوادي المزروع، وكان قد تم بناء أهرامات سابقة على الطين، وبالتالي كان من السهل الحفر من أجل غرفة الدفن ثم يتم بناء الهرم فوقها. لكن ليونة المادة الصخرية كانت السبب الرئيسي للانخساف الذي كان كثيرًا ما يعقب ذلك. لقد كان خوفو يبحث عن أساس أكثر صلابة، فقد كان يرجو لهرمه البقاء. وقد تحققت أمنيته، رغم أن البناة كثيرًا ما اضطروا لارتجال الحلول في مواجهة المشاكل المتكررة التي كانت تطرأ في كفاحهم من أجل أن يستقر ذلك البناء الضخم ويرسخ.



ولقد أراد خوفو أيضًا أن يكون مكان راحته الأبدية آمنًا من هجمات اللصوص. إلا أنه هو وعماله لم يصادف نفس النجاح في هذه النقطة، ولا يعني هذا أنهم لم يتخذوا كل الاحتياطات الممكنة. فقد تم ختم المدخل من الداخل بثلاثة ألواح هائلة من الجرانيت، وأخفيت البوابة الفعلية تحت جدار لا يمكن تمييزه من الخارج. وقد صمد السر حتى القرن التاسع الميلادي حين أصر الخليفة المأمون على فض اللغز بالقوة، ولأنه عجز عن تحديد مكان البوابة، أمر رجاله أن يحفروا نفقًا في الوجه الصخري مستخدمين القواديم والأزاميل وكباش الدك، وهناك أسطورة تقول إنهم حين بدءوا يخترقون القلب، سمعوا صوت ارتطام هائل، فالجدار الذي كان يخبئ المدخل الفعلي قد انهار، وسرعان ما ميزوا المعبر



يبدو هذا الممر - داخل الهرم الأكبر - و كأنه كهف ليس من صنع البشر.

الرئيسي المؤدي إلى غرفة الدفن مهتدين بذلك الصوت، ولكن عندما وصلوا ذهب جهدهم هباء، فقد كان تابوته الهائل المنحوت من الجرانيت الأحمر لم يزل في مكانه، لكنه كان خالياً. والباب الذي يستخدمه السائحون لدخول الهرم هو ذلك الذي حفره الخليفة في جنبه، وليس الباب الذي صممه خوفو. ولقد بنى خفرع بن خوفو هرمه حرفياً في" ظل" هرم والده، إن البقعة التي اختارها تقع على ارتفاع أعلى قليلاً من موقع هرم خوفو، لذلك يبدو هرم خفرع من بعض الزوايا أكثر ارتفاعًا. لكن هذا محض خداع بصري، فهو في الحقيقة أقصر من هرم خوفو بخمسة عشر مترًا.

و التخطيط العام لمجمع هرم خفرع مشابه لخوفو، لكنه صمد للزمن بشكل أفضل كثيرًا، و كان الزوار عادة ما يصلون بالقوارب مخترقين قناة، ويدخلون الرحاب من خلال معبد الوادي، ومن هناك عبر ممر مرتفع يصلون لمعبد ثان، حيث تقام الطقوس الجنائزية، بجوار المقبرة مباشرة. هنا عدة أهرامات لها هرم صغير تابع، والغرض من وجوده أن يكون مأوي روح أو "كا" الفرعون. ففي اللاهوت المصري كانت الـ "كا" هى روح الحياة في جسد الملك. وبينما كانت الـ "با" ـ التي كانت تمثل هويته الشخصية ـ يمكنها أن تذهب وتجيء كما يحلو لها، كانت الـ "كا" ـ ذات الأهمية الجوهرية لبعثه أو "ميلاده الثاني" ـ تنقصها تلك الاستقلالية، وكانت تعتمد للبقاء على بقاء جسد الفرعون على حال تشبه ما كان عليه أثناء حياته بدرجة ما، وهذا هو السبب الأصلي لعملية التحنيط، لا حفظ الجسد من أجل الجسد ولكن لضمان ألا تهلك روح الحياة التي كانت تسكنه.

وبوفاة خفرع، كانت التماثيل، إضافة للمومياوات، قد بدأت تلعب دورًا كبيرًا في الطقوس المحيطة بموت الفرعون، ويبدو أنه كان هناك في معبد الوادي ما لا يقل عن ٢٤ تمثالاً متعملق النسب والأبعاد تمثل الملك خفرع وزوجته، وعدة صور متألهة له بأشكال مختلفة، وإن لم يبق منها الآن إلا أطلال. إلا أن أشهر بورتريه لخفرع هو أبو الهول، الذي يتشمس رابضًا وسط رمال الصحراء في الطرف الجنوبي من مجمع هرم سيده، وأبو الهول هو أضخم تمثال حجري في العالم. ولقد نُحت مباشرة من كتلة صخرية

(في ظهر الصفحة) هرم خفرع في المنتصف يبدو أعلى من هرم خوفو (في الخلفية)، بينما في الواقع هو أقصر: كل ما في الأمر أنه قائم على أرض أكثر ارتفاعًا.



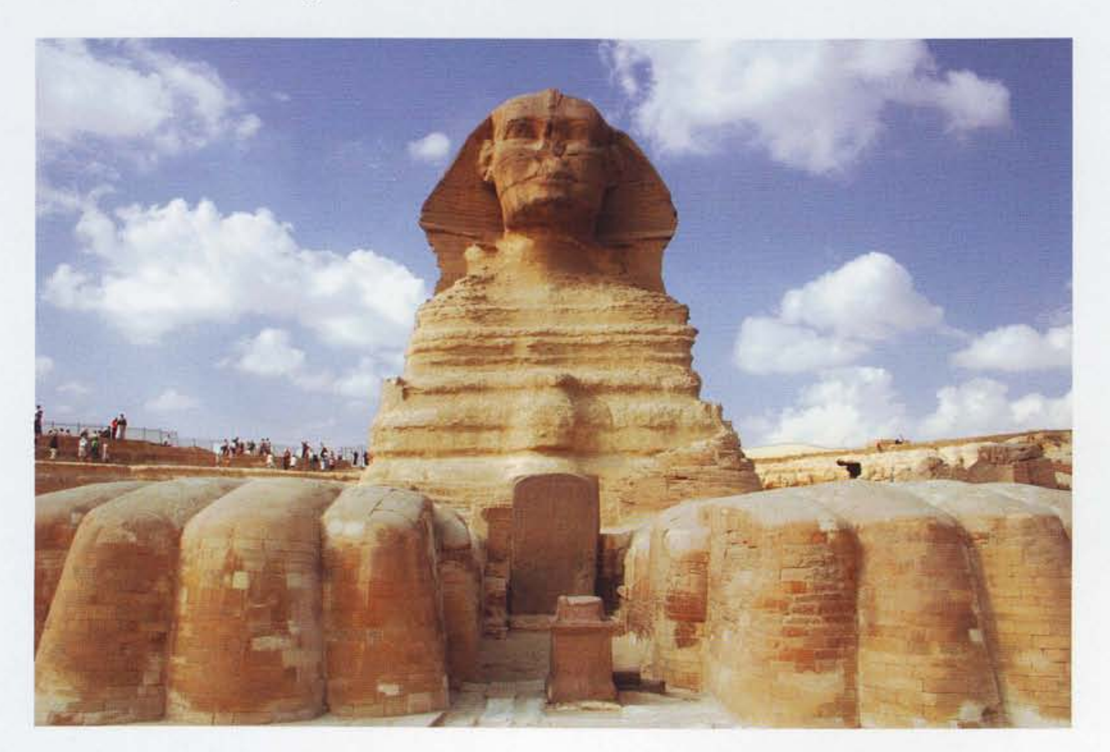


طبيعية. وقد بدأ العمال أولاً بحفر خندق على شكل حرف [U] حول الموقع، وقد ساهمت الصخور الناتجة عن هذا الحفر في بناء الهرم: بينما القصاصات الحجرية الناتجة عن نحت جسد أبي الهول في كتلة الصخر أعيد استخدامها في بناء المعابد الملحقة بمجمع الهرم، وبناء على ذلك فإن أبا الهول يعطينا مقطعًا جانبيا كاملاً تظهر فيه الطبقات الچيولوچية الثلاث التي يتكون منها الجزء الأعلى من الهضبة، ويمكن بسهولة أن نتتبع تغير أنماط الصخور: فالطبقة الوسطى قاومت التأثيرات الجوية بصورة أفضل من الطبقتين العليا والسفلى.

ولقد تآكلت تفاصيل التمثال بشدة، لا بواسطة الرمل والريح فحسب، ولكن بالمطر - فطقس واحة النيل كان أكثر رطوبة بكثير في الألفية الثالثة قبل الميلاد عنه الآن، وانصب الاتهام عادة على نابليون في مسألة قصف أنف أبي الهول بالمدفعية مما أدى إلى كسره: بينما الواقع أنه كان ضحية العهد العثماني، حين تسابق الجنود العثمانيون في تصويب مدافعهم كنوع من التدريب على الرماية. ومع نهاية المملكة القديمة، كانت مصر تكاد ترتمي في أحضان الفوضى، وتُرك أبو الهول العظيم الذي كان في يوم ما موضعًا للعبادة والحج، تُرك للرمال تدفنه. ولكن خلال الأسرة الثامنة عشرة، عاد رأسه للظهور، واعتبره حكام البلد الجدد تجسيدًا للإله حورماخت أو "حورس في الأفق" ويعود الفضل في بعث التمثال بصفة خاصة للملك تحتمس الرابع - وللصدفة.

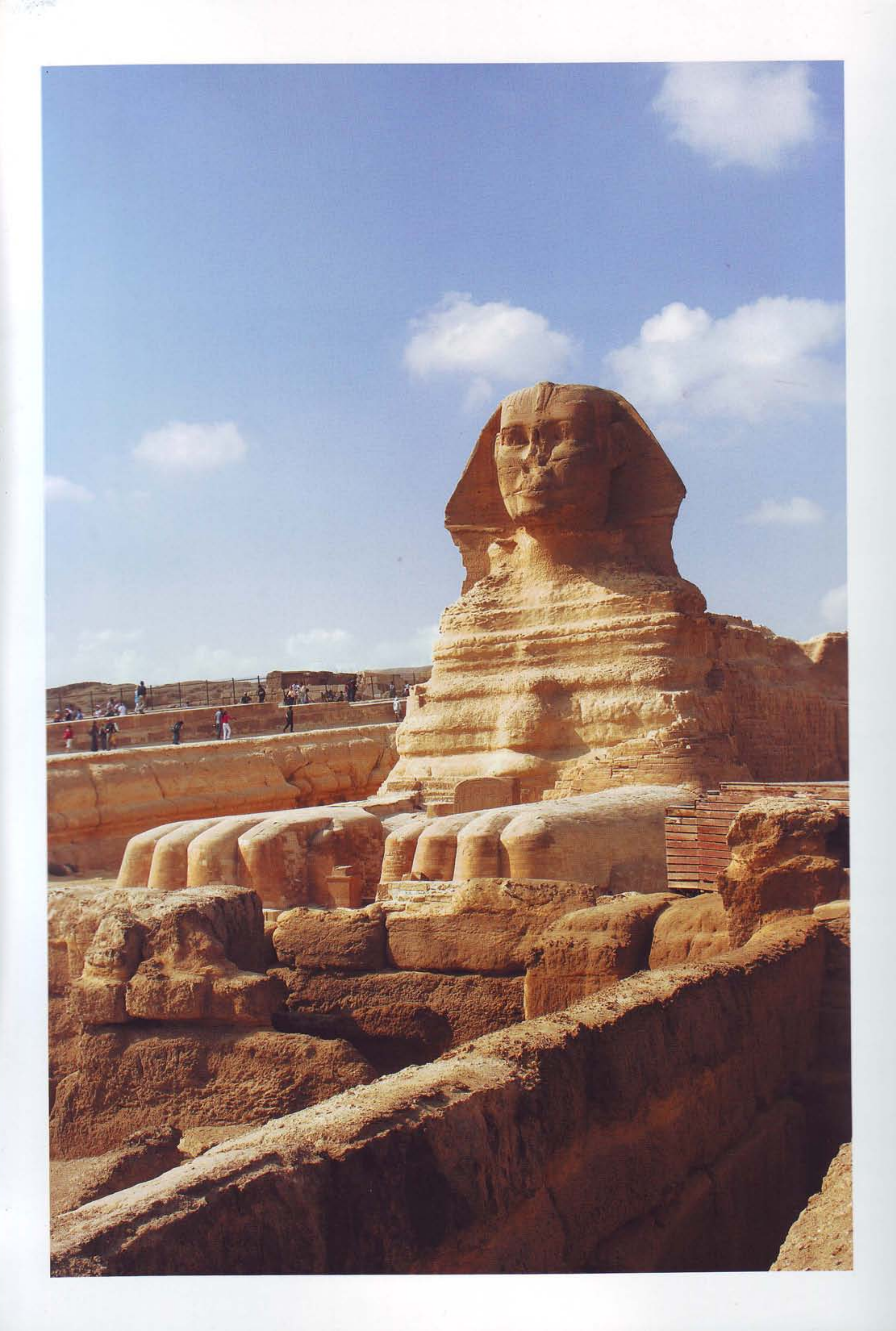
ولم يكن لتحتمس في شبابه أى اهتمام بالسياسة أو الدين: وعلى أية حال، رغم أنه من بيت ملكي، لم يكن في قائمة وارثي الملك، ولكن في أحد الأيام بينما هو في رحلة صيد، رأى رأس أبي الهول بارزة من الرمل، ومن فرط تعبه وحاجته للراحة راح في النوم في الظل الذي رسمه الرأس. وبينما هو نائم، تراءي حورماخت له في رؤيا ورجاه أن يفك تمثاله من أسر الرمال، ووعده في المقابل بأن يجعله ملكًا على بر مصر كله.

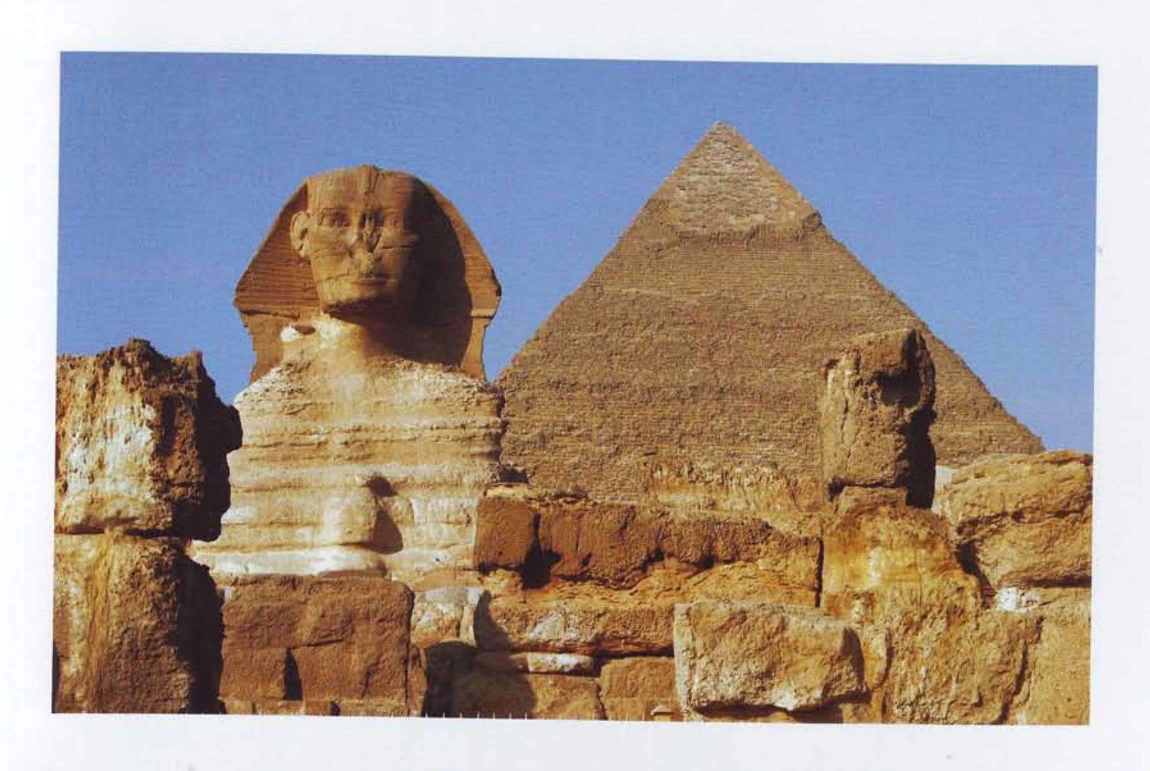
وحين استيقظ تحتمس، قرر أن يفعل ما أمره الإله. فأزال الرمال، وأصلح قدم التمثال المكسورة، وأعاد صبغه بألوان زاهية، وكما تنبأت الرؤيا، ورث العرش عن والده أمنحتب الثاني. ولكي يضمن خلود الرؤيا



أبو الهول يحتضن العمود التذكاري المنقوش بأحلام تحتمس الرابع بين قدميه الهائلتين.

(في الناحية المقابلة) أنماط الحجر المختلفة التي تكون الكتل الخام المنحوت منها التمثال، وقد تعرضت لعوامل التعرية بمعدلات مختلفة.





أبو الهول وقد فقد أنفه بواسطة الجنود العثمانيين الذين اتخذوه مرمى لتدريباتهم.

والوعد بتوليه السلطة أمر بنقشها على العمود التذكاري للرؤيا الذي يقف في الدير الصغير القائم بين قدمي التمثال.

إلا أن كل مَنْ عليها فان، فلم يمر وقت طويل حتى دفنت الرمال أبا الهول مرة أخرى، ولم يتم إخراج التمثال من الرمال بصورة كاملة إلا عام ١٩٣٦ ـ وكانت هذه بركة تحالفها لعنة، فالتمثال يتآكل بسرعة كبيرة تحت تأثير رياح الصحراء، بعد أن تعرى من ثوب الرمل الذي كان يستره ويحميه.

و ارتبط بناء هرم منقرع بن خفرع بطيف محظية اسمها رادوبيس. وحكايتها ـ كما يرويها الجغرافي الإغريقي منكور ـ تشبه حكاية سندريلا بشدة.

"في يوم من الأيام، بينما كانت رادوبيس تستحم، خطف صقر فردة صندلها من خادمتها وطار بها لمنف. وبينما كان الملك يقيم العدل في الهواء الطلق أسقط الصقر المحلق فوق رأسه فردة الصندل في حجره، وأمر الملك الذي حركه جمال الصندل وعجائبية الحدث رجاله بالبحث عن صاحبته في كل أرجاء المملكة، وحين عثروا عليها في مدينة نوكرات أحضروها لمنف وتزوجت الملك. وحين أدركها الموت بُنيت تلك المقبرة سابقة الذكر تكريمًا لها".

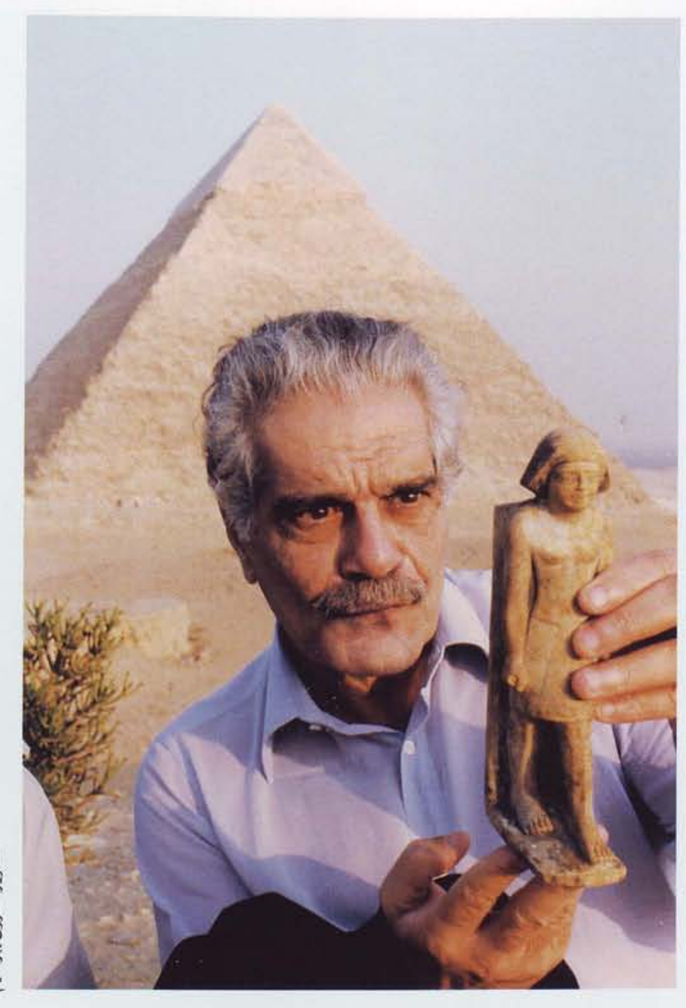
و الهرم الذى يرمز إلى "ألوهية منقرع" أصغر بكثير من هرمي خوفو وخفرع، فارتفاعه لا يزيد عن ٦٦ مترًا، وكتلته لا تزيد عن عُشر كتلة أحجار الهرم الأكبر. أما تركيبه الداخلي فهو الأكثر تعقيدًا بمراحل بين الأهرامات الثلاثة: بما في ذلك حجرة مدخل كبيرة يظل الغرض منها محلاً للتساؤل والتخمين. وهذه الحجرة هى الوحيدة في أهرامات الجيزة التي بها ما يوحي بأنها كانت يومًا مزخرفة. وفي العصر الحديث، كان أول مَنْ دخل الهرم هو الضابط والكشاف البريطاني ريتشاردڤايز، الذي شق طريقه إلى الداخل بتفجير البارود وذلك عام ١٨٣٧. واكتشف ڤايز في حجرة الدفن نعشًا جميلاً من البازلت القاتم مزخرفًا بمشكاوات منحوتة وفي داخله تابوت من الخشب على هيئة رجل، وبداخل التابوت بعض الأسمال والعظام، وقرر ڤايز شحن النعش إلى المتحف البريطاني، لكي يضيع بعد ذلك في البحر بين مالطة وإسبانيا، لكن من حسن الحظ تم شحن التابوت منفصلاً ومازال موجودًا. إلا أنه ثبت أن



الكاتب الملكي إيدو خارجًا من قبره ممدود الذراعين للزوار.

(في الأسفل) ساد طويلاً الاعتقاد بأن هذه الأهرامات الصغيرة كانت مقابر ملكات منقرع.





تصوير: فاروق إبراهيم

أحد النجوم الخالدين يتأمل خالدًا مثله. عمر الشريف وتمثال لعمل مصري قديم.

(في الناحية المقابلة) عروض الصوت والضوء الليلية تحكي تاريخ الأهرامات فيما يشبه الفيلم السينمائي الملون.

ذلك التابوت أقدم من محتوياته بنحو ٦٠٠ عام. وحتى لو تغاضينا عن ذلك ليس هناك ما يضمن أن هذه عظام منقرع.

وفي جنوب هرم منقرع، تقوم ثلاثة أهرامات صغيرة ـ اثنان منهما مدرجان، والثالث هرم حق، واسمها الشائع أهرامات الملكات، إلا أنه لا توجد أدلة واضحة على أن زوجات منقرع دُفنّ فيها. وكان هناك ثلاثة أهرامات بجوار الهرم الأكبر، ولكنها انهارت عدا واحدًا. وفي المجمل تم اكتشاف ١٩ هرمًا على هضبة الجيزة.

وأهرامات الجيزة ككل هى أثر واحد لسلالة ملكية مصرية على درجة عظيمة من القوة والثراء. وسواء من حيث هى فن ومن حيث هى رموز دينية فإن هذه الأهرامات على مستوى من العظمة المهيبة لا يمكن أن يطمح إليه شخص من العامة. إلا أن تلك الطبقة بالغة الأهمية التي جعلت بناءها ممكنًا، أى طبقة الكهنة والموظفين، كانت لها هى أيضًا أبنية تذكارية تخصها. وتشغل أجسادهم اليوم ثلاثة مدافن ضخمة تجاور مباشرة الأهرامات التي ساعدوا على بنائها. ورغم أنها لا تثير من الإعجاب قدر ما تثيره مقابر سادتهم المجردة، فإن مصاطب الصفوة المزخرفة أغنى بالمعلومات غنى مطلقًا فيما يختص بحياة المصريين وثقافتهم في مجتمع المملكة القديمة.

ومن أهم هذه المصاطب مقبرة إيدو، الذي عاش أيام الأسرة السادسة، وتصفه النقوش بـ "كاتب السجلات الملكية". ومقبرته عبارة عن حجرة مستطيلة بسيطة. وفي الحائط الغربي ست مشكاوات، وفي كل

مشكاة تمثال، ويختلف الباحثون حول ما إذا كانت التماثيل الخمسة تمثل إيدو في خمس مراحل سنية من حياته، أم أن أربعة منها يمثلون أفراد أسرته القريبين. إلا أن هنا إجماعاً على أن التمثال السادس الصغير هو لابنه "قار". وفي الحائط الشرقي للمقبرة باب مرسوم شديد الغرابة، إذ يبدو كأنما يصعد في الحائط بينما يبرز إيدو من الأرض في الأسفل، وذراعاه ممدودتان لاستقبال العطايا. وفي اللوح العلوي يجلس إيدو إلى مائدة هبات مع زوجته ميريتيت، وتغطي الحائطين الشمالي والجنوبي نقوش تعطينا بعض أزهى الصور التي لدينا لطقوس الدفن في المملكة القديمة.

لقد حلم خوفو وخفرع بالإبحار في زورق رع إله الشمس كل يوم بينما رأى أسلافهم أنفسهم مثبتين في سماء الليل كالجواهر بين النجوم الأخرى التي بلا عد.

وعلى بعد قريب في سفح الهضبة، نوع آخر من مصنع الأحلام مازال ينتج نجوماً من صنعه. إنه ستوديو مصر الذي أنشأه عام ١٩٣٥ رجل الصناعة العظيم طلعت حرب ليمد مصر بصناعة سينما تليق بتاريخها. لقد كانت طموحات طلعت حرب تبلغ من الاتساع ما يمكن أن يفهمه رجل مثل دافيد و. سيلزنيك. فمساحة الاستوديو شاسعة لدرجة أن العاملين إن لم يكن لديهم سيارات عليهم أن يسيروا كيلو مترين على الأقدام ليبلغوا مكاتبهم.

ومن اللحظة التي بدأ فيها، حقق ستوديو مصر نجاحاً هائلاً. ومع قيام ثورة ١٩٥٢، كانت ثلاثة ستوديوهات أخرى قد نشأت، اثنان منهما على مرمى حجر من ستوديو مصر. وبين تلك الاستوديوهات الأربعة كان يتم إنتاج سبعين فيلماً سنوياً، وهكذا أصبحت الجيزة لا هوليود مصر فحسب بل هوليود العالم العربي كله (أو هوليود الشرق كما نسميها ـ المترجم).

وبالنسبة للحكومة المصرية حديثة الاستقلال، كانت السينما فناً وطنياً من الدرجة الأولى. فبعد تأميم الاستوديوهات، بدأت في الحال توسيعها حتى بلغت "مدينة سينما" حقيقية، صارت تحتوي على تسعة بلاتوهات إضافة إلى مواقع تصوير خارجي على نطاق تحسده حتى الاستوديوهات الكبرى مثل MGM Universal. ومنذ الثلاثينيات حتى الثمانينيات هيمنت السينما المصرية على خيال الجماهير العربية وأمدتها بأنماطها الذاتية للرقي الحضاري والفكاهي ـ وقليلاً من مذاق الخلود. واليوم يكثر الحديث في القاهرة عن مدينة الإنتاج الإعلامي، التي تقع على بعد ١٥ كيلو متراً من الأهرامات في مدينة ٦ أكتوبر. هذا الموقع الذي يغطي ٥٠٠ هكتار (وهو مقياس مساحة زراعي أكبر من الفدان ـ المترجم) ويحتوي على ١٥ بلاتوه تصوير على أحدث ما وصلت إليه تطورات التكنولوجيا في هذا المجال، ويقال عنه إنه أكبر تجمع من نوعه خارج كاليفورنيا، ومن الديكورات الخارجية الثابتة مدن مصرية قديمة (فرعونية) وشوارع من مصر العصور الوسطى الإسلامية وقرية مصرية ملحق بها حقل حقيقي له قنوات ري ومحطات رفع المياه. وقد وهبت السكك الحديدية الحكومية المشروع ٢٠٠ متر من القضبان وقاطرتين غير مستخدمتين، والمخرجون الأوسع خيالاً يمكن أن يختاروا بين بورصة الإسكندرية (التقليد) وسوق للعبيد في الهواء الطلق.



إن روح الفراعنة مازالت تحيا في ذلك المشروع غير العادي الذي تم تخيله على نطاق غير معقول. وكما كانت الأهرامات رمزاً لتوحيد مصر العليا ومصر السفلى، فإن صناعة السينما والتليفزيون في مصر تظل الحقل الأساسي التي تواصل مصر من خلاله تأكيد زعامتها الثقافية للعالم العربي. وأثناء ذلك، تم بيع استوديوهات شارع الهرم الحكومية ـ بعضها لمنتجين مستقلين، يأملون في مواصلة التراث القومي لروح المغامرة والإبداع التي ولدت من سبعين عاماً مستلهمين في ذلك الموقع التاريخي.

نسج مدائح الشمس

كانت الأسرة الخامسة علامة فارقة ونقطة تحول في مصائر المملكة القديمة. فلقد كانت المركزية المتزايدة لسيطرة الفراعنة على الاقتصاد المصري قد ساعدت على ميلاد ثقافة الأهرامات، لكن مركزية السلطة هذه بدأت تتراجع مع نشوء الأسرة الخامسة، حيث صارت الأنظمة الإدارية التي راعت شئون مجمعات الأهرامات تبغي تأكيد استقلالها. فالموظفون والكهنة ـ الذين تولوا الإشراف على طقوس تقريب العطايا للموتى بما تهب من ثروة ـ كانوا قد استطاعوا ترسيخ مكانتهم كنوع من الأرستقراطية المحلية. وفي نفس الوقت كان المناخ قد بدأ يميل للجفاف، مما أدى إلى حراك هائل من السكان نحو وادي النيل ودلتاه قادمين من واحات الصحاري، وكانت النتيجة فترة من الاضطرابات والقلاقل الاجتماعية وتشظي الثروة القومية؛ ولهذا فليس مما يثير الدهشة أن الأهرامات التي بقيت من ذلك العهد أقل إثارة للإعجاب من أهرامات الأسرة الرابعة: كما لم تصمد لاختبار الزمن بنفس القوة. فالفراعنة الجدد كانوا ببساطة عاجزين عن توفير نفس المدد من الموارد والقوة العاملة.

إلا أن الأفول النسبي لظاهرة الهرم كان له أيضًا دوافع لاهوتية. فهضبة الجيزة لا تمثل ذروة إنجاز عصر الأهرامات فحسب، بل كانت أيضًا مصالحة توفيقية بين عقيدة رع الشمسية البازغة آنذاك، والتي كان الفرعون في إطارها هو تابع الإله ومنفذ سياسته على الأرض، ثم بعد ذلك في الحياة الآخرة: نقول مصالحة توفيقية بينها وبين النظام اللاهوتي القديم القائم على مجمع آلهة تسوده المساواة، حيث ظل الفرعون طويلاً يطمح إلى الانضمام إليه ليكون هو أيضًا نجمة بين نجوم كثيرة في سماء الليل، وكانت عبادة الشمس ترتبط بوضوح بسطوة الملك؛ ولأن هذه السطوة بدأت تضعف كان تأكيدها مسألة تبلغ من الخطورة على الأقل مبلغ الاستعداد للحياة الآخرة. فقد كان من المهم أن تُبهر رعاياك في حياتك كما تبهرهم بعد الموت.

الفصل الثاني

وبناء على ذلك فقد بذل فراعنة الأسرة الخامسة من الجهد في بناء معابد الشمس لرع قدر ما بذلوا في تشييد آثارهم الجنائزية.

وإذا زرنا أبا صير سنلمح بوضوح تلك النقلة من حيث الأهمية. ورغم أنها اليوم لا تحوي إلا هديمًا وأطلالاً قد قطعت شوطًا طويلاً في التماهي مع الصحراء والذوبان فيها، إلا أن أبا صير كانت يومًا ما الموقع الرئيسي لأهرامات الأسرة الخامسة. وقد بُني فيها ما لا يقل عن أربعة عشر هرمًا لم يبق منها قائمًا إلا أربعة. وعلى مقربة منها إلى الشمال أبو غروب حيث بنيت أقدم معابد مصرية للشمس وكانت فاتحتها معبد أوسركاف أول ملوك الأسرة الخامسة.

وكان أوسركاف ذا قرابة بعيدة لشبسكاف آخر ملوك الأسرة الرابعة. ومن الممكن أن لهفته على إثبات أنه "فرعون" حقيقي دفعته إلى بناء هرم يخصه في سقارة إلى جوار هرم زوسر، الأب العظيم للتراث الهرمي.

إلا أن إسهام أوسركاف الحقيقي في فن العمارة كان في أبى غروب حيث بنى أول معبد ملكي للشمس في تاريخ مصر، إن معبد الشمس هو في الأساس مجمع هرمي يحيط بمسلة بدلاً من هرم، وكانت المسلة بالنسبة للمصريين بؤرة للعبادة. ومن المحتمل أن شكل المسلة بدأ كتنويعة من الكوم البدائي، لكنه جعل يتمدد ويتحدد حتى صار تجسيداً لشعاع شمس قنصته الحجارة.

تم تصميم معبد الشمس على أن يؤدي إلى المسلة بنفس الطريقة التي كان بها المجمع الهرمي يؤدي إلى الهرم. فمعبد الوادي يقود إلى ممر مرتفع يؤدي بدوره لمعبد جنائزي بجوار الأثر. إلا أنه للأسف



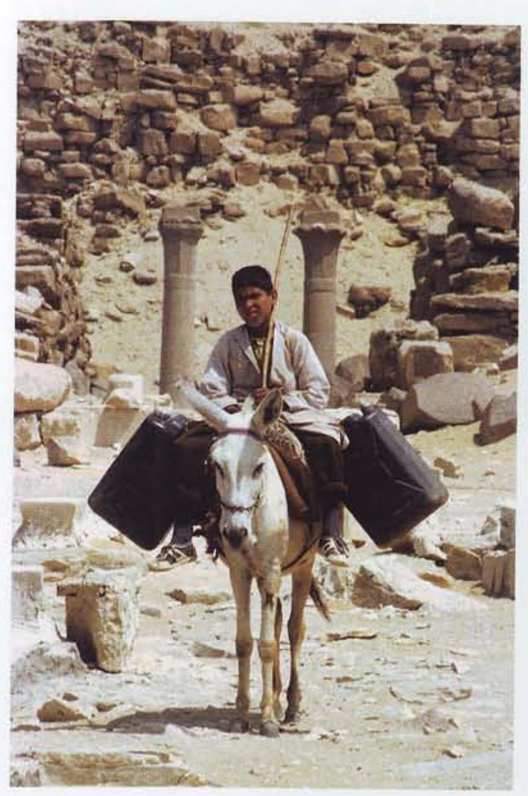
الروح في معبد ساحورع: يبق قائما إلا اثنان من أعمدة الجرانيت الستة عشر التي كانت تحمل سقف المعبد الجنائزي.

لا توجد مسلات ظلت قائمة الآن في أبى غروب، وحتى أفضل المجمعات المعبدية تحملاً لبطش الزمن لا تزيد عن تخطيط أرضي لما كان قائمًا، ويقدر علماء الآثار أن المسلة التي كانت قائمة في معبد نيوصير كانت ترتفع على قاعدة يبلغ علوها ٢٠ مترًا بينما ارتفاعها هى ربما بلغ ٣٦ مترًا. وتروي لنا النقوش عن ستة معابد من هذا النوع، غير أننا لم نصل إلا لاثنين منها. معبد أوسركاف ومعبد نيوصير، وبعض الدارسين يعتقدون أن الأربعة الأخرى يستحيل أن نجدها، لأنها لم تكن مباني مستقلة، بل مجرد تجديد وتوسيع لمعابد قائمة أنشأها أسلافهم.

وكمجامع الأهرامات، كانت لمعابد الشمس جماعات كهنوتية خاصة بها تقوم بإدارتها. وكانت تتمتع اقتصاديا بالاكتفاء الذاتي حيث كانت تتلقي إقطاعات من الأرض الزراعية وهبات عباد الشمس أثناء الأعياد، وكانت المراسم الدينية المركزية لهذه المعابد هى طقس ذبح الحيوانات التي تتراوح بين أوزة متواضعة وثور جليل. وفي الفناء الداخلي لمعبد نيوصير مازلت تستطيع أن ترى المذبح المرمري الضخم حيث كانت تقدم تلك القرابين، والمذبح عبارة عن أربع كتل لها شكل علامات "حتب" تحيط بقلب دائري يمثل قرص الشمس. وعلامة الـ "حتب" تعني "الرضا"، وهكذا يمكن قراءة المذبح ككل كجملة هيروغليفية تتردد في كل جهة من الجهات الأربعة "رع قد رضى".

وكل الأهرامات التي بنيت في أبى صير يظهر أنها كانت تتبع نفس النمط الذي يبدو أنه كان بشكل أو آخر هو التقليد المتبع، وكانت أصغر بجلاء من أهرامات الأسرة الرابعة، كما أن تركيبها الداخلي كان أبسط. وفي كل نماذجها، كان معبد الوادي لا يطل على قناة كما كان الحال في هضبة الجيزة، بل على بحيرة أبى صير.

وكانت العظمة هى ما ينقص تلك الأهرامات، وإن كانت حاولت تعويضها من خلال اعتناء أكبر بالزخارف





الممر المرتفع الذي يصل بين معبد ساحورع والبحيرة مازال مستخدماً حتى اليوم.

(على اليمين) ساعد الاختفاء التام لهرم نفررع على فحص غرفة الدفن فيه.

وتفاصيلها. أما إحاطتنا بخططها الزخرفية والمواضيع التي كانت تتكرر فيها، فيعود الفضل فيها لذلك الاهتمام المتزايد التي تعكسه تلك الأهرامات بالنحت الحائطي قليل البروز على حساب الرسم مما أدى إلى بقاء ما يكفي من تلك الزخارف ليفي بالغرض.

ويمثل مجمع الملك "ساحورع" الهرمي ذلك النمط بشكل نموذجي، حيث يصور الفرعون ملكًا محاربًا يخضع أعداء الدولة، عائدًا من حملاته في آسيا وليبيا محملاً بالغنائم. وفي أحد المشاهد صور "ساحورع" في صورة أبي الهول وهو يسحق الأعداء تحت براثنه، ومشاهد الصيد في أماكن أخرى تؤكد فكرة تسيد الفرعون للعالم المادي.

وكثير من أهرامات أبى صير لم يتم بناؤها، حيث مات أصحابها قبل الأوان، وكل ما تبقى فيها كومة حجارة يصعب تحديد شكلها وذلك في أحسن الحالات. فأهرامات "نيفريدكاري" ـ الأخ الأصغر لساحورع ـ وزوجته خنتكاوس يمكن تمييزهما بالكاد، حيث يشبهان تلين صغيرين من رمل الصحراء. أما البناء الفوقي لهرم نيفريفري ابن خنتكاوس الأكبر فقد اختفى الآن تمامًا تاركًا لنا فقط حجرة الدفن التي غاصت تحت الأرض، بينما خليفته شيبسكاري وجد بالكاد الوقت ليسوي قطعة من الأرض ويحفرها قبل أن يموت لتكون مثوى له.

وقد كان نيوصير ـ آخر الملوك البناة في أبى صير ـ هو الذي تولى مهمة إكمال أهرامات والديه وأخيه، إضافة إلى إقامة أثره هو. وأثناء ذلك كان يلجأ أحيانًا إلى استغلال أجزاء من آثارهم ليسهل من مهمة بناء هرمه. فلكي يحافظ على محور التوازي بين هرمه ومعبد رع المركزي في "هليوبوليس"، كان على نيوصير أن يبني هرمه في الصحراء خلف هرم نيفريفري. لكنه اختار بدلاً من ذلك أن يحشر معبده الجنائزي في جزء ضيق ملاصق لمعبد أخيه الجنائزي، مستغلاً بذلك الأساسات التي وضعها أخوه للممر المرتفع ومعبد الوادي اللذين لم يمهله الزمن ليبنيهما.

ورغم أن تلك الأطلال تبدو مملة للسائح بعض الشيء، إلا أنها بتراوحها بين مراحل متنوعة من الانهيار تمنح علماء الآثار فرصة لا تقدر بثمن لدراسة أساليب البناء لمعماريي مصر القديمة.
وفي قرية الحرانية القريبة، هناك تجربة مختلفة تمامًا تجرى منذ خمسين عامًا وأيضًا تحت قيادة معماري. ففي عام ١٩٥١ انتقل رمسيس ويصا واصف إلى هناك في محاولة لإثبات فرضية تقول بأن الملكة الإبداعية فطرية وموجودة في كل الناس. . وأن أى شخص إذا أعطيناه الوقت والوسيلة والتشجيع يمكن أن يصير فنانًا. واختار وسيلة نسج السجاد لأنها وإن كانت بطيئة التعلم تمنح ممارسها المتعة من أول لحظة. وقد قرر واصف أن يترك القاهرة بحثًا عن بيئة أقل تلوثًا بمدنية الحاضر النفعية، وأن يتعامل فقط مع عقول لم يشوهها التعليم التقليدي. وبدأ في الحرانية يكون بيئة تعليمية قائمة على الطفل كانت فريدة في نوعها في مصر آنذاك. وكان لا يقبل إلا الأطفال بين السادسة والثامنة من العمر، ويصر على أن ينموا هم أسلوبهم الخاص مدفوعين بغريزتهم الإبداعية، ويمنع وجود أى نقد من الكبار يحد من تشجيعهم، حتى لو قرروا أن السماء وردية وجعلوا جمالهم زرقًا.
وكانت التجربة انتصارًا عظيمًا، بفضل بساطة وكرم شخصية ويصا واصف، وبفضل حقيقة أن إبداع تلاميذه لم يأت من كتاب أو تقاليد، بل خرج مباشرة من تعاملهم مع النسج وخبرتهم اللحظية. فكان ممنوعًا عليهم الاهتداء بتصميمات أو رسوم كارتونية، وكل سجادة كان يتم اختراعها أثناء نسجها مباشرة على النول، والآن تباع أفضل سجاجيد ستوديو واصف بأسعار مرتفعة، وقد ساهم الاستوديو في رفع مستوى معيشة قرية زراعية فقيرة كغيرها من القرى، إلى جانب تفجيره لطاقة إبداعية بلا حدود.
وبعد عدة سنوات، أغلق ويصا واصف ورشته في وجه التلاميذ الجدد، وكل الذين يعملون فيها الآن صناع راشدون في قمة قدراتهم الإبداعية. ولكن للاستمرار في ذلك التقليد أنشأت إرمجارد العوادلي ورشة جديدة، وهى امرأة ألمانية كانت متزوجة من مهندس مصري، وعلى نهج ويصا واصف من قبلها أعطت العوادلي اهتمامًا خاصًا لعملية الصباغة. فكل الألوان جاءت من نباتات تربيها هى في حديقتها الخاصة. والآن تواصل ابنتها نينا عملها، مستمدة الإلهام من حبها لأهل الريف. والتلاميذ يعملون على أبسط الأنوال، وتصور سجاجيدها مشاهد بسيطة من حياة القرية. وكل منهم يعمل بإيقاعه الخاص، وينسقون بين نسجهم وأنشطتهم الأخرى، وأحيانًا تستغرق ياردة مربعة من النسيج شهرًا كاملاً ولكن النتيجة ـ في أفضل الأحوال ـ وليمة للعين.





نيوسر- رع (إلى اليسار) استطاع تفكيك هرم أبيه نفر كا رع (إلى اليمين) ليستخدم أجزاءه في بناء هرمه هو.

(إلى اليمين) كان هرم نفر كا رع هو الأكبر في "أبى صير"، و لكن لم يكتمل في يوم من الأيام.



نشوة الإبداع يتميز بها عمل النساج الصغار في ورش ويصا واصف (في الصفحة المقابلة) والعوادلي (في الأسفل).

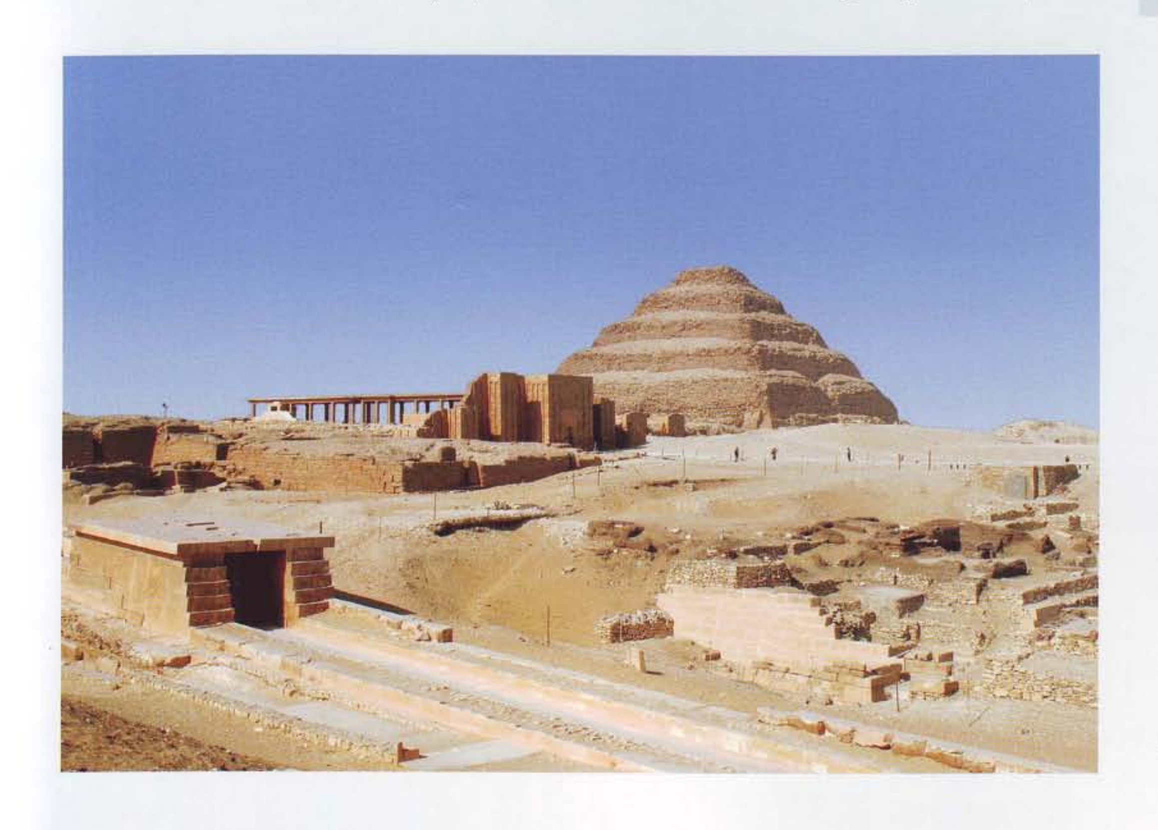


الصعود والأفول

سقارة هى أكبر موقع أثري في مصر، وتغطي مساحة ٧ كيلومترات مربعة. لكن ما يهم ليس الحجم وحده، فقد كانت سقارة مهد عصر الأهرامات ببناء هرم زوسر، ذلك الهرم المدرج الرائع، الذي صمدت روعته أمام هجمات الزمن واللصوص معًا. وهنا أيضًا توقف ذلك التراث العظيم مع حلول الأسرة السادسة، التي عجز ملوكها عن حفظ الدولة المصرية أو حتى آثارهم الشخصية من الانهيار.

وهرم زوسر المدرج هو أقدم بناء حجري مصري، وكان هو المؤسس للشكل الهرمي كقالب معماري قابل للتطبيق بأبعاد ونسب هائلة بحق. وقد تم بناؤه لفرعون الأسرة الثالثة نتفيرخت (الذي يشتهر الآن بالاسم الذي أطلقه عليه المعجبون من أهل المملكة القديمة) وصممه أول معماري يبلغ أوج النجومية في التاريخ - إمحتب، الذي كان كبير وزراء زوسر. والهيبة التي كانت له في قلوب معاصريه رغم أنه من العوام تعكسها حقيقة أنه بعد موته حولوه إلى إله باسم "إيموت" ابن الإله "بتاح". ولم يكن إنجاز زوسر مجرد نصر شخصي. لقد ورث أرضًا مستقرة عن أبيه الملك خاسيخموي الذي لم يكتف بتوحيد مصر بل ألحق بعرشه معظم فلسطين والنوبة، وكان خاسيخموي قد بنى لنفسه أعظم مجمع جنائزي في أبيدوس (انظر الفصل السابع). ثم بدأ زوسر يطور أثره هو، مستلهمًا في ذلك الأشكال ما قبل الهرمية التي شيدها أسلافه، وكانت قبور المصاطب المصنوعة من الطوب الطيني قد بدأت فعلاً تتطور إلى مدرجات أو تتكوم عليها أحجار غير متراصة في تقليد للكوم البدائي، ولكن زوسر أراد أن يخطو للأمام. ولكي يفعل ذلك، كان عليه أن ينقل المقبرة الملكية مئات الأميال إلى الشمال، أى لسقارة، فالمادة التي اختارها لبناء أثره كانت متوفرة جدًا هناك.

وكل الأهرامات المصرية العظيمة لها تركيب ثنائي. فالقلب مصنوع من الحجر الجيري الخام، وعادة كان يتم تجهيزه في موقع البناء نفسه. ولكن بينما كان الخام يفي بالغرض تمامًا لتأسيس البناء، كان



هرم زوسر هو أقدم بناء حجري في مصر.



التصميم المدرج هو حلقة الوصل في التطور من المصاطب التي سبقته للأهرامات العظيمة بالجيزة.

يفتقر إلى الكمال الفني الذي كان يسعي إليه الفراعنة. وهكذا لجأ زوسر من أجل الغلاف الخارجي لهرمه للحجر الجيري الصلب الذي يكاد يكون لامعًا وكان يتوفر في طرة الواقعة على الضفة الشرقية للنيل في مواجهة سقارة، ولكن اقتلاع أحجار طرة لم يكن بالأمر السهل، فقد كان عليهم استخراجها من باطن الأرض، كانت المادة أيضًا أكثر عنادًا، وعند التقطيع كان سطحها يبلغ من النعومة أنه كان يلمع تحت شمس الصحراء.

ولقد تطور لاهوت المملكة القديمة من مذهب عبادة أوزيريس في أبيدوس، عبر عبادة النجم في عصر الأهرامات المبكر، حتى بلغ غايته في عبادة رع إله الشمس في الجيزة، وهكذا صارت رءوس السهام الهائلة، تلك المغروسة قوالبها الثلاثية في الصحراء، صارت تجسيدًا رمزياً لشعاع الشمس متجمدًا في صورة حجرية، ومما يدعو للحزن أن الغلاف الخارجي لهرم زوسر، شأنه شأن كل الأهرامات، سرق من زمان بعيد، وما نراه اليوم هو القلب الخام.

وكما لو أن استحضار حجر طرة الجيري لم يكن تحديا كافياً، قرر زوسر بناء حجرة دفنه من الجرانيت الأحمر والأسود الذي لا يوجد إلا في أسوان، وكانت التكلفة الفيزيقية والبشرية لهذا الحجر هائلة. وكانت الأحوال في محاجر الجرانيت فظيعة. فقد كان يلزم شرخ الصخور باستخدام النار لكي يتضح ما إذا كان بها أى خطوط معيوبة، ثم فصلها بطريق الطَّرق بواسطة عدد كبير من العمال قد يقضون أسابيع لاستخراج قالب واحد. فإذا كانت خرافة هيرودوت القائلة بأن الفراعنة كانوا يستعبدون شعبهم إرضاء لنزوات طموحهم، إذا كانت اقتربت يومًا من الحقيقة، فلابد أن هذا قد حدث في محاجر أسوان.

وحتى بعد استخراج الصخرة، تظل مشكلة كيفية نقلها في سفر طويل حتى سقارة. فقد كان كل قالب يزن طنًا أو يزيد. ورغم أننا نعلم أنها كانت تُنقل مع مجرى النهر فلا أحد يدرى حتى الآن كيف كانت تُحمّل تلك الكتل الهائلة من الحجارة على مراكب من خشب دون أن تغرق.

إن الإقدام على بناء بهذه الضخامة باستخدام مادة شديدة الإباء وتحتاج جهودًا خارقة لم يكن مجرد عرض من أعراض جنون العظمة، بل كان قبل ذلك دليلاً على مستوى من السيطرة السياسية والاقتصادية على البلاد ومواردها غير مسبوق في تاريخ مصر. لقد بدأ عصر الأهرامات بزوسر، وكان إمحتب، بوصفه كبير وزرائه، هو الذي أشرف على ازدهار بيروقراطية بلغت من القوة القدر الكافي لتحويل رؤية مليكه إلى حقيقة. إلا أنه ليس من الواضح ما إذا كان إمحتب قد خطط من البداية لبناء هرم. فعلماء المصريات يقولون إن هرم زوسر بدأ مصطبة مسطحة هائلة الحجم بدأت ترتفع تدريجيا وباطراد على مراحل بدأت بدرجتين ثم أربعة وأخيرًا ست درجات. وربما كان هذا نوعًا من الحذر مَنْ جانب من تولوا البناء، ولكن من المحتمل أيضًا أنهم في البداية لم تكن لديهم فكرة مكتملة عن المشروع. على أية حال، استغرق التجريب وقتًا طويلاً، وعندما مات زوسر، كان هرمه جاهزًا بالكاد لاستقبال رفاته. كما لم يكن الهرم قائمًا بذاته ومكتفياً بها. فقد شيد زوسر حوله مجمعًا جنائزيا كاملاً مصممًا ليكون قصرًا للأبدية تهيم روحه في ردهاته وغرفه بعد الموت. ولقد أمده إمحتب بسلسلة من النسخ المحسنة والمجملة لأهم أضرحة آلهة مصر، مستوثقًا من أنها منيعة تمامًا على دخول البشر الفانين الذين لن يهتدوا أبدًا إلى مدخلها ولن يروا أمامهم إلا بابًا مرسومًا من حجر. بل إنه أمده بفناء يعدو عبره الملك المتوفي في سباق ليثبت أنه مازال جديرًا بالملك حتى بعد موته. إن الغرابة الشديدة لهذا المفهوم ليس لها نظير في التاريخ المصري، ومازالت تلك الأبنية المنيعة على الاختراق تتصاعد منها أحاسيس شبحية. ولقد مشي شخمخيت بن زوسر على الفور تقريبًا في خطا والده، فبنى مجمعه الهرمي الخاص متاخمًا لهرم والده من ناحية الجنوب الغربي. ولقد كان من المخطط أن يتشامخ هرم شخمخيت على هرم والده



الأثر الخالد لتيتي الأول أصبح الآن كوماً من الهديم لا أكثر.



شباب عراة يرقصون على جدار مصطبة ميريروكا.

(في ظهر الصفحة) التماسيح تهاجم أفراس النهر، بينما يخرج صيادو ميريروكا من المستنقع.

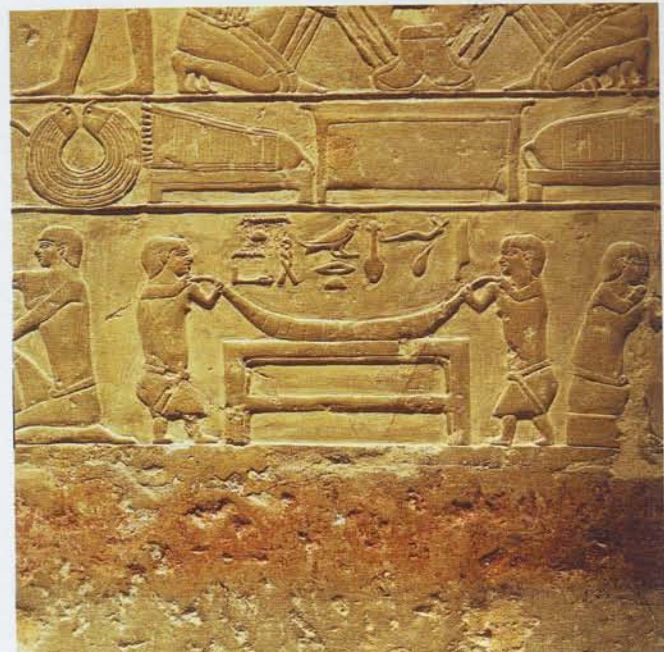
بمقدار عشرة أمتار في صورته النهائية، ولكن شخمخيت مات بعد ست سنوات فلم يعل هرمه فوق السور الذي أحاط موقع البناء. ولقد غطته آلاف السنوات الفاصلة بينه وبيننا تمامًا بالرمال، ولم يعد اكتشافه إلا عام ١٩٥٠ على يد زكريا غنيم.

فإذا قفزنا الآن مائتي عام، لوجدنا أنفسنا في مصر مختلفة تمامًا. فلقد كان حكم زوسر بداية عصر ذهبي، ولكن حين نصل للأسرة السادسة نجد ذلك العصر قد أفل. فقد بدأت تتقلص دائرة النفوذ السياسي لمصر، ومعها سلطة الملك. وصارت الصفوة المحلية التي ساعدت الأهرام على إيجادهم قادرة على إثبات ذاتها في مواجهة الفرعون. وخلال ذلك بدأ الطقس يميل للجفاف لتنكمش الواحات ويندفع بدو الصحراء في غارات متزايدة على السكان المستقرين في وادي النيل. ولقد عاد ملوك الأسرة الخامسة لسقارة بعد أبى صير والجيزة، وبنوا إلى جانب خلفائهم ملوك الأسرة السادسة ثلاثة أهرام في شمال سقارة بالقرب من مجمع زوسر، وأربعة في جنوب سقارة، وبكثير من التفاؤل سمي "تيتي" أول فراعنة الأسر السادسة هرمه "إن أماكن تيتي تبقي". ولكن إيمانه بالمستقبل وبقدراته الذاتية أثبت أنه في غير موضعه. فاليوم كل تلك المقابر التي كانت يومًا عظيمة استحالت إلى أكوام من الهديم بلا وقار أو قيمة.

إلا أنها ذات أهمية لسبب واحد على الأقل. فأقدم نسخ نصوص الأهرام وُجدت هنا. وبفضل تلك التراتيل والتعازيم السحرية المنقوشة على جدران ممرات ضيقة وحجرات دفن كئيبة استطاع الدارسون أن يجنوا أول إطلالة حقيقية على عقائد أولئك الذين بنوا الأهرام، وبهذه الطريقة تكون هذه النصوص قد حققت بشكل ما ما تنبأت به. فمن خلالها عاش الفراعنة الذين كان القصد منها أن تحميهم حتى وصلوا الألفية الثالثة بعد الميلاد ـ حتى لو كنت حياتهم الآن لا تتعدى صفحات كتب التاريخ.







(في الأعلى) عمال التعدين يستخدمون آلات النفخ لتشغيل المصهر.

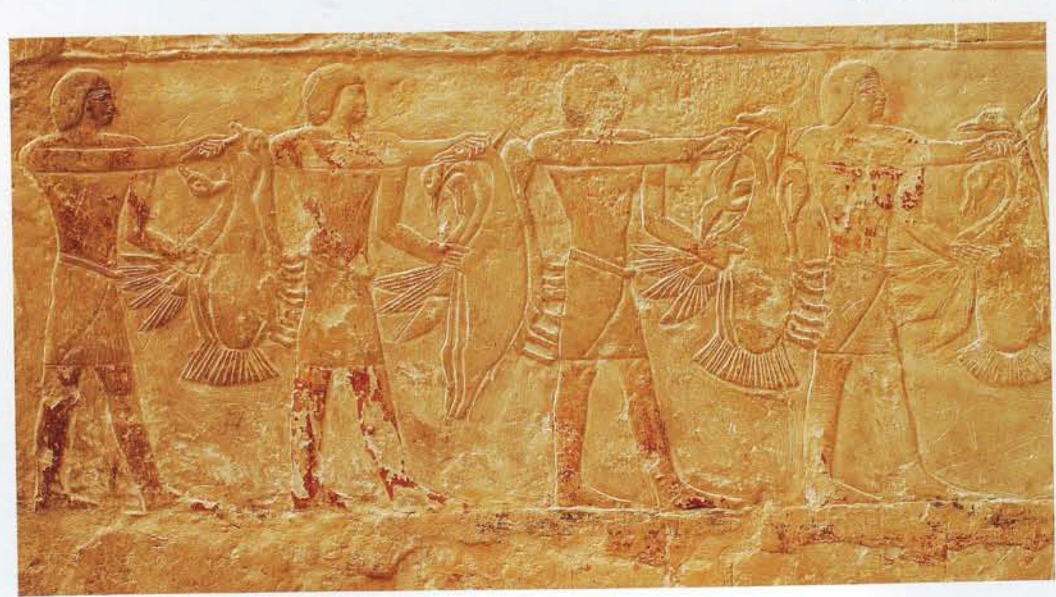
(في الأسفل) الأقزام يصوغون المعدن المنصهر جواهر ثمينة.

رجال البلاط يصلون حاملين أوزًا سميناً خصيصاً للمعبد.

وفي جنوب هرم تيتي يمتد شارع المدافن، حيث كان يدفن كثير من رجال البلاط في الأسرة السادسة. وعظمة بعض هذه الآثار تشهد بجلاء على النقلة التي حدثت في ميزان القوي بعيدًا عن الملك نحو الدائرة الأوسع من الصفوة الاجتماعية لمصر. أما في الجيزة، فكان الرجال والنساء من نفس الطبقة يدفنون في مصاطب عارية من أى زينة: بينما في سقارة بزغ قبر النبيل كقالب فني في ذاته. وهناك من هذه القبور عدد كبير بحيث يمتنع علينا أن نعطي كل واحد منها ما هو جدير به من مديح وتقدير. ولكن إذا كان علينا أن نختار واحدًا منها، فلتكن مصطبة ميريروكا.

إن ذلك المجمع المكون من ٣٢ حجرة، والذي بناه وزير تيتي وزوج ابنته، هو الأكبر في سقارة، ويضم حتى أجنحة مستقلة لزوجته ولابنه. والداخل مزخرف بنقوش بارزة ملونة بديعة. وفي باحة المدخل نرى ميريروكا يلعب النرد ويرسم في لوحة على حامل. وحين نتمشي في الحجرات، نرى في البدء الوزير يصيد الفرائس في المستنقعات. بعد ذلك نراه وهو يفتش على أعمال أنواع من الحرفيين منهم صناع الأثاث وصائغو الذهب والجواهرجية. وفي الحجرة التالية يظهر لنا وهو يجمع الضرائب ويعاقب الذين يمتنعون عن الدفع، وإلى اليمين حجرة تُرفه فيها راقصات حسناوات عن الموظف الكبير، بينما إلى اليسار مشاهد من تقديم الأضاحي والقرابين. وفي كل هذه المشاهد، تظهر زوجته هرت - واتر - خت بجانبه مرافقة له في كل أنشطته. وفي آخر هذا الصف من الحجرات تقع حجرة القرابين الكبرى ويتصدرها تمثال بديع لميريروكا خارجًا من الباب الخداعى، والرسوم حوله على الجدران تصور موكبه الجنائزي، والتأثير الكلي يوحي بالعظمة مع العناية الشديدة بأدق التفاصيل وأرقها. لقد قطعنا هنا شوطًا هائلاً من مقابر الصفوة على هضبة الجيزة. فالجلال والعظمة التي تخيلها ميريروكا لنفسه في حياته الآخرة هى شىء لم يكن يجرؤ على مجرد التفكير فيه أى شخص من العامة مهما علا وترقي في خدمة الفرعون في عهد خوفو أو خفرع.

واليوم تستضيف الرقعة المحيطة بسقارة كل ربيع ملوكًا من نوع مختلف. إنهم الشيوخ الذين يفدون من العالم العربي ليشاركوا في سباق الخيل المصري حيث يتسابق الفرسان على إظهار قدرتهم على التحمل، ويتراوح المتنافسون من أمراء خليجيين لمصريين عاديين وحتى بعض الأوروبيين. وما يجمعهم في يوم واحد هو سباق يبلغ طوله ١٢٠ كيلو مترًا - وهو امتحان طاحن لفارس وحصانه معًا يستغرق إتمامه من أسرع الفرسان سبع ساعات.





(في الناحية المقابلة) ميريروكا يمسك بيد زوجته في الحياة الآخرة.

(في الأسفل) جواد عربي رشيق ينتظر صابراً قدوم صاحبه.

وكثير من الحيوانات الراكضة في الصحراء دائرة حول الأهرامات في الجيزة ودهشور في طريق عودتها لسقارة هى أسلاف بعيدة لأول جياد عربية أحضرت إلى مصر بعد الفتح العربي، ويشاع أن الموجود حالياً هجين من الجواد العربي والجياد الإنجليزية التي تم استيرادها في القرن التاسع عشر، وبعض مدربي الخيول الحاليين يقسمون إن أفضل جياد سباق يمكن الحصول عليها هى نسل هذا المزيج من الچينات الوراثية.

وسقارة هى إحدى البنود العالية في الأجندة العربية لسباقات الخيل. ولكن الزائرين ذوي الطموحات الأكثر تواضعًا، أو ذوي الخبرات الأقل، يمكنهم أن يتمتعوا بنوع أكثر استرخاء من الرحلة على ظهر الخيل. فالمنطقة هى أيضًا مقر لأسطبلات تقوم بتوريد الخيول بالذات للسائحين، وتنظيم رحلات على ظهر الخيل تطوف عبر الصحراء بكل المواقع السياحية الرئيسية، صحيح أن الجواد الذي تعتليه قد لا يملك تلك الجسارة التي يتمتع بها قريبه الذي يجري في سباق عنيف نحو المجد كل عام في إبريل، ولكنك ستجده جميلاً، ولطيفًا أيضًا من حيث الطبع. والركض من الوادي الثري الخضرة نحو هرم زوسر العاري في الفجر تجربة لا يمكن أن تنسى. هنا، أخيرًا، تستطيع أن تعطي ظهرك للباحثين وبائعي التذكارات معًا، وحدك في هذا المنظر الأثري ستبدو لك الحضارة الحديثة محض حلم مزعج. فمع ظهور مقابر الفراعنة من خط الأفق ستبدو لك كأنها آخر ما تبقي من ذرى سلسلة جبال هائلة الحجم وكارثية التاريخ ـ أكثر مما تبدو لك عملاً من صنع الإنسان. إنها تبدو أحد ألغاز الطبيعة، لغزًا لن يتوقف عن مساءلتنا، ولن نستطيع أبدًا أن نفهمه.



الأسود ...والأحمر...والمَحْنِي

عادة لا تُدرج دهشور في البرامج السياحية: ومع ذلك فهى واحدة من أهم المواقع الأثرية في العالم القديم، إضافة إلى أنه يمكن الاستمتاع بها في هدوء نسبي نظرًا لخلوها من سماسرة الخيل وبائعي الهدايا التذكارية، الذين يعطون هضبة الجيزة طابع البازار أكثر منها مقابر ملكية. فهنا فتح والد خوفو الطريق لولده الأكثر شهرة حين بنى في دهشور أول هرم أملس الجوانب، وبهذا أسس القالب الكلاسيكي الذي وضع النمط لإنجاز الفراعنة لآلاف سنين تلت.

ولقد استغرق تحول سنفرو من الأهرامات المدرجة لأسلافه المباشرين للشكل الهرمي "الحق"، استغرق وقتًا طويلاً ليصل إلى الشكل المضبوط. ولكن لحسن الحظ كان لديه الوقت الكافي. فحين ارتقى إلى العرش، كأول ملوك الأسرة الرابعة، كانت مصر وقتها قوية ويغمرها السلام في نفس الوقت. وقد ساهم سنفرو نفسه في زيادة مملكته قوة حين وسّع حدودها الجنوبية إلى ما بعد جنادل أسوان الأولى لتشمل النوبة. ولقد تم تتويجه أيضًا في سن مبكرة جدًا، ومن الممكن - رغم اختلاف المصادر حول هذه النقطة - أن يكون قد حكم لمدة خمسين عامًا. وبهذا يكون أعظم بناة الأهرام - كفرد - في تاريخ مصر، إذا اتخذنا في ذلك مقياس الوزن الكلي للكتل الحجرية وليس الإنجاز المعماري الخالص. فالأهرامات الأربعة التي بناها أثناء حياته تزن أكثر من كل آثار هضبة الجيزة موضوعة في كفة واحدة. وحين التفت سنفرو لدهشور، كان قد استوعب تجربة فشله وانهيار هرمه في ميدوم وطرحها خلفه (انظر الفصل الخامس). وحتى قبل هذه التجربة المبكرة التي انتهت قبل الأوان نظرًا لاختلال توزيع مواضع الثقل في الهرم، فقد كان سنفرو قد بدأ في مشروع سوف يكون له أثر حاسم على ملكه. وهو بناء قصر معقد التصميم من الطوب الطيني في دهشور. وقد أصبح هذا القصر الموقع الجديد للبلاط الملكي، بينما ظلت الإدارة في "الجدران البيضاء" (منف). ولم يبق لهذا القصر اليوم أثر، ولكن يرى الأثريون أن بمجرد الانتهاء منه أمر سنفرو بوقف العمل في هرم ميدوم، وانطلقت حملة بناء أخرى لإبداع مقبرة تليق بجلال الملك على أن يكون موقعها من الممكن رؤيته من المقر الملكي. وحتى في هذه المرحلة، كان الشكل الهرمي في حال صيرورة، كان البناة يخترعون القواعد وهم يعملون، وكثير من المعرفة الهندسية تم الحصول عليها من خلال تجارب مؤلمة. ففي محاولتهم الأولى بدهشور، يبدو أن البناة أخطأوا في حساب مواضع الثقل والأحمال التي تنتج عن بناء أملس الجوانب من القاعدة للقمة. وفوق ذلك، كان اختيار الموقع سيئًا. فالأرض حول القصر الجديد كانت من الطين الرخو، ورغم ذلك لم يحاولوا إمداد الهرم بقاعدة مهيأة هندسياً تمام التهيئة، والقشرة الخارجية فقط أفادت من قاعدة حجرية أودعت خصيصًا لها.

الفصل الرابع

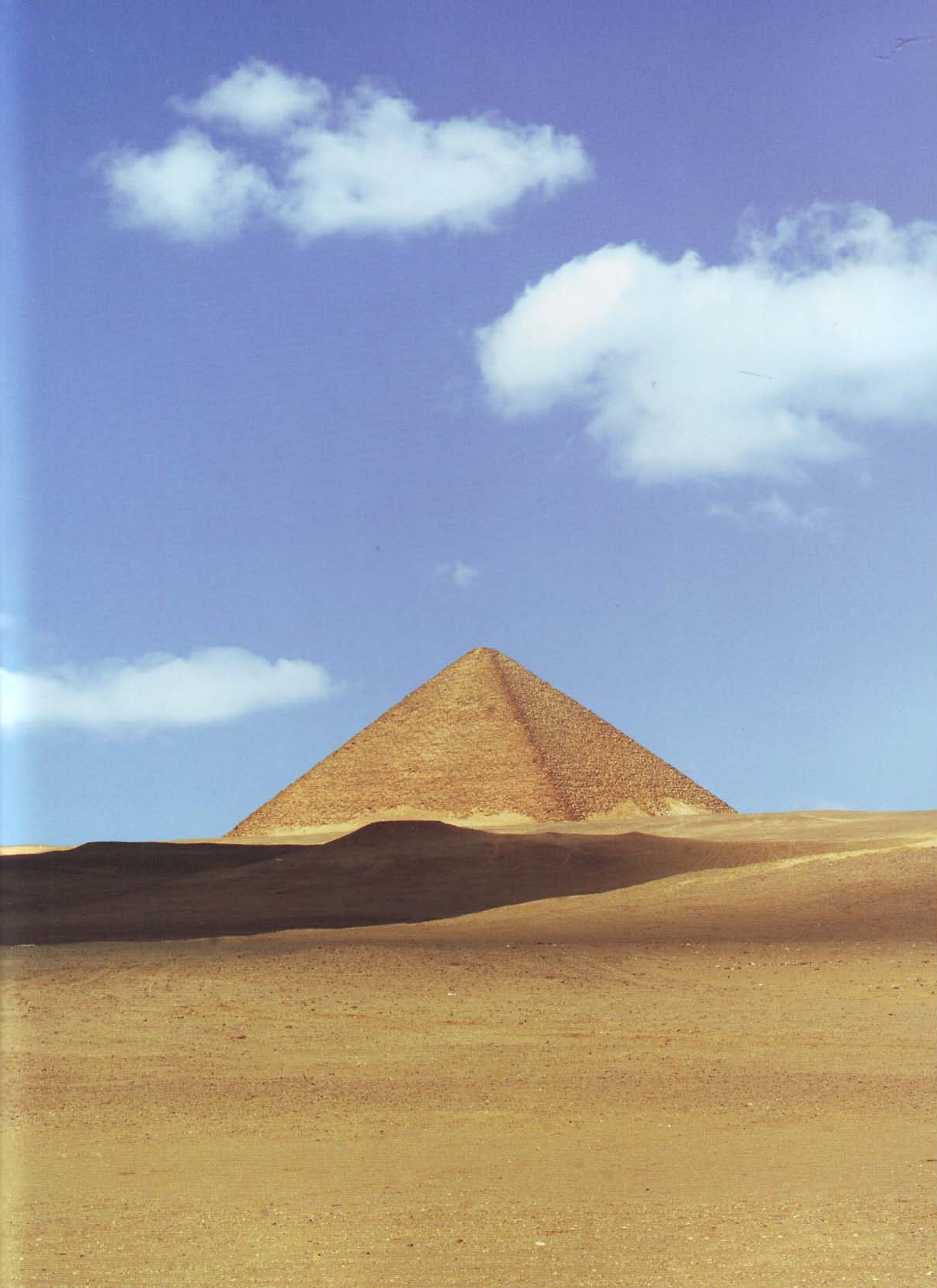
وكان البناة قد انتووا في البداية جعل زاوية انحدار أوجه الهرم ٦٠ درجة. لكنهم سرعان ما أدركوا حماقة مسعاهم، وخفضوا الزاوية إلى ٥٤ درجة. إلا أن ذلك أيضًا لم يكن كافياً لحماية خططهم من الضلال. فقبل أن يمر وقت طويل، ظهرت دلائل انخسافات ضخمة، حيث بدأت تظهر شروخ في الحوائط الداخلية حتى قبل الانتهاء منها. وكان لزامًا أن تُتخذ إجراءات عاجلة لوضع دعامات للبناء من الداخل، بينما يعمل المهندسون فكرهم لاكتشاف علاج طويل المدى.

وفي النهاية استقر الرأى على فكرة عديمة الجدوى بشكل واضح. وهى تغيير زاوية الهرم مرة أخرى، بحيث يقل الانحدار إلى ٤٣ درجة عند نقطة ارتفاع ٤٥ مترًا، وبهذا اتخذ الشكل الخاصية التي تعطيه الآن اسم الهرم "المَحْنِي".

الشكل المميز للهرم المحني لم يكن في الواقع إلا حدثاً عارضاً.

هذا السلويت الفريد من السهل تمييزه حتى من مسافة بعيدة جداً.





هرم الأحمر كان فى الأصل
معضى بطبقة من الحجر الجيري
لامع لكي يعكس أشعة الشمس.

ولقد قلل هذا النهج إلى حد كبير من وزن الجزء الأخير. وفي نفس الوقت، تحول الحجارون من النحت بزاوية إلى النحت أفقيا لتدعيم استقرار القمة أكثر وأكثر. (فالحجارة المنحوتة بزاوية كانت ذات نفع في الأهرامات المدرجة، أما هنا فقد جعلت مواضع التحميل في البنية الجديدة تندفع نحو الخارج مما يشجعها على التداعي).

وقد أنقذ هذا الفعل الحاسم الهرم من مذلة الانهيار التام، وبهذا حافظ على بقائه "خطأ" هائل الحجم رابضًا على الأرض، مباشرة بجوار القصر الملكي. وكان الفشل يستحيل تجاهله، ولكن لم يحبط سنفرو الفشل، بل حاول مرة أخرى في العام الثلاثين من حكمه مصممًا ألا يخطئ هذه المرة. وانتقل إلى موقع آخر إلى الشمال من الهرم القديم بمسافة ضئيلة، حيث بدأ البناء من جديد، ولم يتركوا شيئًا هذه المرة للصدفة. فزاوية الانحدار كانت ٤٣ درجة مع أول حجر وضع. ونتيجة لهذا فإن الهرم الأحمر ـ نسبة للون الصخرة التي قُدّ منها قلبه المكشوف الآن ـ هو أكثر أهرامات مصر تسطحًا. وقد بدءوا ببناء قاعدة من الحجر الجيري لكي يستقر عليها البناء بأكمله، وبهذا قللوا من احتمال حدوث انخساف في البناء نتيجة رخاوة الأرض من تحته، كما قرروا وضع صفوف الحجارة بشكل مسطح دائمًا. وهو نظام تطلب قوى عاملة أكبر بكثير، ولكنه جعل البناء أشد صلابة.

والنتيجة ظاهرة للعيان الآن. فالهرم الأحمر هو أول هرم مصري "حق" نجح بناؤه ومازال قائمًا اليوم. ولكن الزاوية المنخفضة لسفحه الصاعد تعني أنه كان من السهل جدًا على اللصوص القدماء أن يرتقوه ويتنقلوا عبر أسطحه ويسرقوا ما يواجههم من صخور طرة من الحجر الجيري الثمين. ولهذا فقد اختفت قشرته اللامعة من زمن بعيد. وعلى سبيل المقارنة، فإن الغلاف الخارجي للهرم "المحني" مازال كما هو تقريبًا. وهو بهذا يعطينا فكرة دقيقة عما كانت تبدو عليه أهرامات المملكة القديمة الأخرى قبل سطو اللصوص عليها. إن التأثير الذي يمنحه سطحه المكتمل الذي يلمع ويتلألأ تحت ضوء شمس مصر اللاهب لهو واحد من أشد الرؤى المتبقية من العالم القديم كله روعة وإذهالاً، ويبرر بقوة الاسم الذي أطلقه عليه معاصروه ـ "سنفرو يسطع جنوبًا".

إلا أن الهرم الأحمر يبقي بناءً يفرض نفسه بقوة رغم انحداره الضحل وخشونة مظهره الخارجي. ولا يفوقه في الحجم إلا هرم خوفو الأكبر. وهو الآن يعلو بمقدار ١٠١ متر وقاعدته تبلغ مساحتها ٢٢٠ مترًا مربعًا، والهرم الأحمر يتمتع أيضًا بالأصالة من حيث اتجاه غرفة الدفن، المختبئة في عمق سحيق داخله، بحيث يستطيع الفرعون من مرقده أن يرى النجوم القطبية التي سوف يلحق بها منضمًا إليها في حياته الآخرة. ولذا فللمرة الأولى يكون توجه غرفة الدفن من الشرق للغرب، في توافق مع المجمع المحيط كله. فرع إله الشمس في الدولة المركزية، كان قد بدأ يفرض سطوته على الحياة والفكر في مصر.

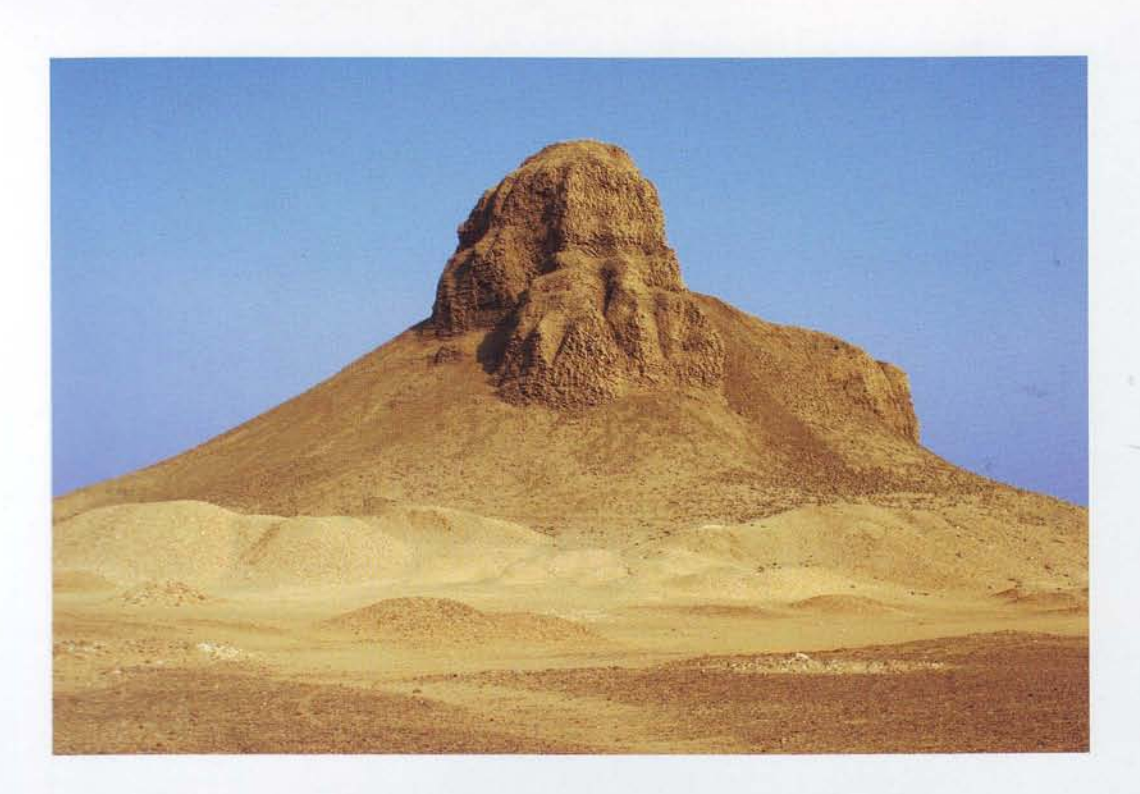
وحجرة الدفن في الهرم الأحمر مفتوحة للزوار، وإحدى فوائد كون برامج الجولات السياحية عادة ما تتجاهل دهشور أن بإمكان المرء أن يتذوق ذلك الجو النفسي الفريد في داخل الأثر وهو في عزلة. وفي جنوب الهرم المحني يقوم هرم صغير تابع يتنبأ تصميمه الداخلي بهرم خوفو بدقة لافتة، وهنا عدد من الأهرامات مكتملة الحجم يرجع تاريخها إلى الدولة الوسطى، وأكثر هذه الأهرامات قوة تأثير هو هرم أمنمحات الثالث، الواقع شرق الهرم الأحمر. ولقد نعم أمنمحات ـ كسنفرو ـ بملك مديد ـ ٤٥ عامًا ـ وكسنفرو أيضًا كان يحتاج تلك الفترة الطويلة لإتمام برنامجه لبناء أثره الجنائزي الخاص، وكانت محاولته الأولى في دهشور قد استخدمت قلبًا من الطوب الطيني مغلفًا بالحجر الجيري، وكان من المنتوى أن تغطيه ذروة هرمية من الجرانيت الأسود، ولكن سوء حظ سنفرو أصاب بنحسه أمنمحات



الهرم الأسود – الذي سمى قديمًا "أمنمحات جميل" – أصبح اليوم لغزًا أكثر منه لذة للعين.

أيضًا، حيث اتضح أن الصخرة التي ارتفع فوقها البناء كانت أضعف من أن تحمله، فبدأت الجدران الداخلية تتشقق وتغوص، ورغم أن العمال أدخلوا عروقًا من خشب الأرز في محاولة لتعطيل النهاية المحتومة. هُجر البناء، وبدأ العمل في آخر في هوارة بالفيوم، واليوم يتمتع ذلك البناء الفظ الذي تعرى من غلافه المتلألئ بحضور شديد ـ لكنه حضور يذكرك بتلك الصخور العمودية شديدة الانحدار المنبثقة من أرض وادي الآثار في أمريكا، أكثر مما هو امتداد لأرقى نماذج ازدهار الحضارة المصرية.وطبقًا للتراث المنقول، كان سنفرو حاكمًا شديد الطيبة إلى جانب كونه ناجحًا، ويقال عنه إنه كان يخاطب أقل رعاياه شأنًا بـ "أخي" أو "صديقي". من المناسب إذاً أن آثاره الباقية لم ترثها صناعة السياحة الحديثة بل هى رفيق للفلاح الذي يعزق الأرض في الحقل المجاور، ولم تتغير الحياة في ذلك الجزء من وادي النيل عبر القرون إلا قليلاً. فالدورة السنوية مازال يحكمها إيقاع تغير الفصول، إن النيل لم يعد يفيض، ولكن المزارعين الذي يربون المواشي مازالوا يزرعون البرسيم لمواشيهم إضافة للقمح والشعير. وكثير من البيوت مبنية من الطوب اللبن، مثلها مثل أبراج الحمام، وسد أسوان يقع على بعد مئات الكيلو مترات. والري هنا لا يحتاج تكنولوجيا عالية، بل مازال يدوياً في كثير من الأحيان. وخلال كل ذلك تظل أشجار النخيل الأنيقة المطلة على ذلك المنظر الريفي، تظل تطرح وفرة من البلح يتم حصادها كل خريف. ويعطي حصاد البلح إشارة البدء لنشاط محموم. فقشرة سنبلة القمح الفارغة القديمة، التي تم اختزانها من حصاده الأخير، يتم ضغطها لتصنع ملاجئ تقوم في كل مكان ليحتمي خلفها البلح حتى يجف. فالغربان تحب البلح الطازج، وكذلك الفئران، بل حتى الأبقار، ويتزامن موسم الحصاد في الدلتا مع الموسم الذي يطلق فيه الفلاحون مواشيهم ترعى حرة في الطرق لحمايتها من المبيدات التي ترش على حقول القطن، وبعض الأبقار التي تراها في دهشور في ذلك الوقت من العام ربما تكون قد أتت من طنطا أو دمياط!

إلا أن ذكرى الفيضان السنوي لم تضع تمامًا، حتى في عصر الزراعة الكيماوية. ففي كل ربيع وخريف، تمتلئ ما تسمى بالبحيرة الملكية بمياه القناة القريبة ـ لا من أجل أغراض الري، ولكن لإغواء الطيور المهاجرة في طريقها من وإلى أوروبا، وأثناء ذلك الموسم القصير تتراص الخيام على شواطئ البحيرة حيث يسعى هواة الصيد المعسكرون هناك ليالي بطولها إلى قنص طير نادر يكون لذيذًا عند الطبخ ـ وهم يعيدون دون وعي منهم وفي ثياب حديثة تمثيل أحد المشاهد القديمة التي هى مألوفة تمامًا لنا من تأمل رسوم مصر القديمة ونقوشها البارزة.



أمنمحات الثالث هو الفرعون الذي يظهر في القصة التوراتية "يوسف وإخوته السبعة".

مزارع من دهشور يستخدم دلواً خشبياً وثقلاً موازناً من الطين لرفع الماء إلى حقله.

تخرج من قصر التيه . . لتجد الساقية

الهرم في ميدوم حطام جليل، حتى وإن كان في شكله الحالي لا يكاد يبدو في هيئة هرم على الإطلاق. ولقد شبهه ت. ج. هـ. جيمس بحصن قلعة من العصور الوسطى، وكان في رأي المؤرخ العربي تقي الدين المقريزي أنه يشبه جبلاً مكونًا من خمس درجات. ومنذ عهد ليس بالبعيد كان أهل القرى المحيطة به يدعونه باحتقار "الهرم الكداب". لكنه ليس هرمًا حقًا فحسب، بل هو أول هرم تم بناؤه بحواف مستوية مدرجًا. إلا أنه بالطبع لم يبدأ العمل فيه على هذا الأساس. . .

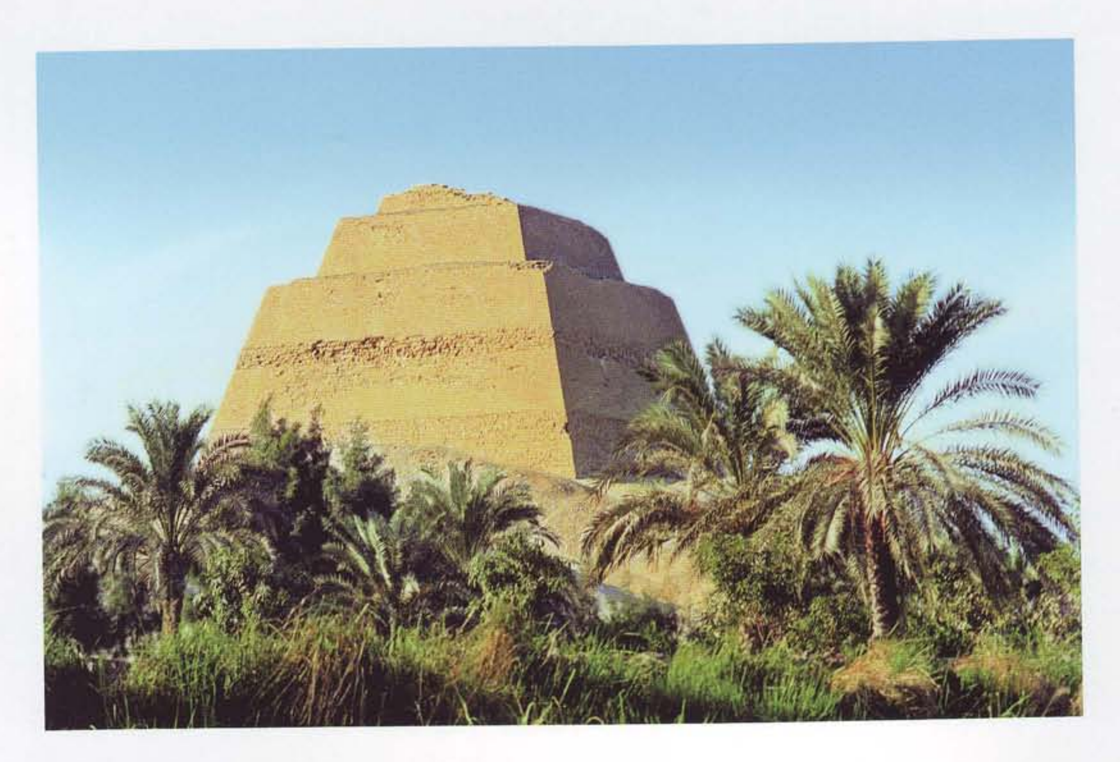
إن هذا البناء يلفه كثير من الغموض، حتى أن علماء المصريات لا يستطيعون الاتفاق حول مَنْ بنى هرم ميدوم. فكثيرون يعتقدون أن حوني آخر ملوك الأسرة الثالثة بدأه على الأقل، ولكن الكتابات المنقوشة في الحجر التي تم العثور عليها في الموقع بعد ذلك تنسبه إلى سنفرو، أول ملوك الأسرة الرابعة، الذي بنى فيما بعد الهرمين الأحمر والمحني في دهشور. أما مدينة ميدوم نفسها فظلت معروفة في فترة متأخرة من حكم الأسرة الثانية عشرة على الأقل، وذلك باسم "دييد سنفرو" أو "سنفرو مخلص".

وأيا كان المسئول عن ذلك البناء، فلقد تأني في الوصول إلى التصميم النهائي. فلقد برهنت الفحوص التي أجراها لودفيج بورشار في عشرينيات القرن الماضي على أن الهرم تم تكوينه على ثلاث مراحل. في البداية كان التصميم سبع درجات هى عبارة عن طبقات حادة الزاوية من حيث الانحدار متراصة فوق بعضها. وفيما بعد، أضيفت طبقة ثامنة مع غلاف من الحجر الجيري اللامع من طرة. ثم، ربما بعد ذلك بعشر سنوات أو أكثر، أضيفت طبقة أخيرة تم فيها مد الجوانب وملء فجوات الدرجات مع وضع غلاف ثان من حجر طرة. ومن المؤكد أن الهرم في هذا التوقيت كان بناء مثيرًا للإعجاب بحق، فلم تكن جوانبه ملساء فحسب، بل وصل ارتفاعه إلى ٩٥ مترًا.

ولكن هذا الإنجاز لم يكن مقدرًا له البقاء. فالطبقتان الداخليتان لم تكونا مربوطتين ببعضهما كما يجب، بينما اتكأت الطبقة الخارجية على رمال الصحراء فقط، دون أى أساس بنيوي. وهكذا، بمرور الوقت، انهارت الطبقتان الداخليتان ببطء واختلطتا بما يحيطهما تاركتين القلب المكون من ثلاث درجات الذي نراه الآن محاطًا بفوضى من الكثبان الرملية والهديم.

وقُدر لسنفرو أن يواصل فيبني هرمين آخرين. وربما حفزه إلى ذلك فشله في ميدوم. على كل حال، فلم يترك خلفه واحدًا من أضخم أكوام الهديم في التاريخ القديم فحسب، بل مجمعًا كاملاً ألهم نموذجه كل بناة الأهرام الذين جاءوا بعده على امتداد زمن الأسرة الرابعة. فقد كان المجمع الذي بناه زوسر في سقارة عبارة عن فناء مسوّر مستطيل اتجاهه من الشمال للجنوب، ونطاق من مباني الطقوس الجنائزية، ولكن هرم ميدوم توجهه من الشرق للغرب وينفتح على شمس الشروق، ويتصل بالحقول الخصبة بواسطة ممر مرتفع، وهذا التغيير لم يكن مجرد صرعة جديدة، بل كان له أيضًا مغزى لاهوتي. فبعد البدء فيه على أنه سلالم نحو السماء، تم تحويله إلى منحدر أملس كانت قشرته اللامعة تعكس وتمثل أشعة الشمس، ولم يعد الهرم نسخة طبق الأصل من البلاط الملكي يتيح للفرعون أن يمارس مدى الأبدية نفس طقوس ملكه الأرضي، بل صار نقطة انطلاق لرحلته اليومية في مركبة الشمس بجوار رع.

وميدوم أكثر أهرامات المملكة القديمة توغلاً في الجنوب. فالفراعنة التالون فضلوا أن يبنوا في الشمال من ميدوم. ولم تعد الفيوم لسابق عهدها مركزًا للنشاط الجنائزي إلا مع صعود الدولة الوسطى حول عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد. فقد نقل أمنمحات الأول، أول ملوك الأسرة الثانية عشرة عاصمة ملكه إلى "اللشت"، وبدأ على التو تجفيف أجزاء من الواحة لتصبح صالحة للزراعة، كما سمح لنفسه أن يستغرق



القالب المميز لهرم سنفرو بميدوم غموضه في النهار كغموضه في الليل.



العثور على مدخل هرم سنوسرت الثاني على يد بيتري استغرق شهوراً.

في إرضاء شهوة الصيد عنده، فغمر مساحة أكبر من المستنقعات بالماء صانعًا ما عرف بعد ذلك ببحيرة قارون، بينما سماها المصريون القدماء بحيرة "موير". ولقد بنى أمنمحات وولده سنوسرت الأول من بعده أهرامات في "اللشت"، ولكنها كلها تقريبًا انهارت تمامًا، ولا سبيل للوصول إلى غرف الدفن بسبب الفيضان.

أما هرم سنوسرت الثالث في اللاهون فيتميز بالنزعة التجديدية في تقنية بنائه. فبدلاً من تشييد قلب مستقل، استخدم أنوبي معماري سنوسرت من الحجر الجيري بروزًا تكون بفعل الطبيعة وبنى فوقه تيهًا من الجدران. ثم مُلئت الخانات التي تكونت بالهديم وغلفت بالحجر الجيري، وحمى الهرم من الفيضانات التي نالت من سابقيه خندق مليء بالرمل والصوان حول قاعدته، ولكن بعد أن انتزع اللصوص قشرته انحل الطوب الطيني سريعًا إلى ما نراه اليوم من كومة شائهة البنيان.

وكان أمنمحات الثالث، كسنفرو من قبله، سيئ الحظ في محاولته الأولى بدهشور. فقد انهار الهرم في العام الخامس عشر من حكمه. وقد اختار لمحاولته الثانية موقعًا في هوارة القريبة من اللاهون. وكالعادة انتزعت قشرة ذلك الهرم في تاريخ قديم ولم يبق منه إلا تل منهار من الطوب الطيني، وكانت سرقة المقابر بحلول ذلك العهد قد تفشت، ولهذا أصاب أمنمحات هوس السرية والأمن، فكانت حجرة دفنه منحوتة من حجر واحد من الكوارتز، وتسقفها ألواح ضخمة من الجرانيت، والممر المؤدي إليها كان مجهزًا بأبواب مسحورة وأخرى خفية وشباك حديدية بقصد منع الضيوف غير المرحب بهم من الدخول. إلا أن كل هذا لم يفلح في حماية الجثمان الملكي من النهب قبل أن ينجح فليندرز بيتري في دخول الهرم ١٨٨٩ بزمن بعيد.

وإلى الجنوب من ذلك الهرم، في الضفة المقابلة للترعة، تقع بعض أعمدة مقطوعة ومزق حجرية هى كل ما تبقى من علامات وجود معبد أمنمحات الجنائزي الذي يسمى أيضاً بقصر التيه (اللابيرنت). وحين ننظر لذلك المعبد الآن يصعب علينا تصديق وصف هيرودوت له بأنه أكثر أبنية مصر إثارة للإعجاب، بل هو أعظم حتى من أهرامات الجيزة!

وطبقًا لديودوروس سيكولوس، زار ديدالوس هوارة واستلهم التصميم المعقد لذلك المعبد حين بنى تيهه

(أعلى) أمنمحات الأول كان أول فرعون في المملكة الوسطى يبني هرماً ينافس أهرامات المملكة القديمة.

(أسفل) هرم لاهون – ذو البروز الحادث بفعل الطبيعة في قلبه – يعد بناءً لافتاً.

الخاص في كريت، مسقط رأس الكائن الأسطوري مينوتور.

والفيضانات التي تسببت في تدمير أهرامات أمنمحات الأول وذريته لهى دليل على الاختلاف الجذري لعالم الفيوم من ٤٠٠٠ سنة عما هو الآن. ففي ذلك الوقت كان منسوب الماء أعلى بمقدار ٨٥ مترًا. والفيوم ليست واحة حقيقية، فهى لا تغذيها ينابيع تحت الأرض. بل إن النيل كان في الماضي يخترق المدى الضيق من التلال التي تفصلها عن المنخفض وذلك أثناء فيضانه السنوي محولاً معظم المساحة إلى مستنقع منخفض. وقد كان أمنمحات الأول هو مخترع نظام الري الذي مازال قائمًا في مناطق كثيرة من الفيوم إلى الآن. فبشق قناة صناعية تصل النيل بالواحة، استطاع توسيع بحيرة "موير" واستخدمها كمخزن احتياطي يسحب منه ما يريد من ماء أثناء موسم الجفاف، كما أنشأ شبكة من الترع الأصغر، مما كان يعني أن الأرض التي تم استصلاحها حديثًا في ذلك العهد يمكن استخدامها في الزراعة، واليوم تدعي الترعة الكبيرة "بحر يوسف"، وينسب الفلكلور المحلي شق هذه الترعة للنبي "يوسف".

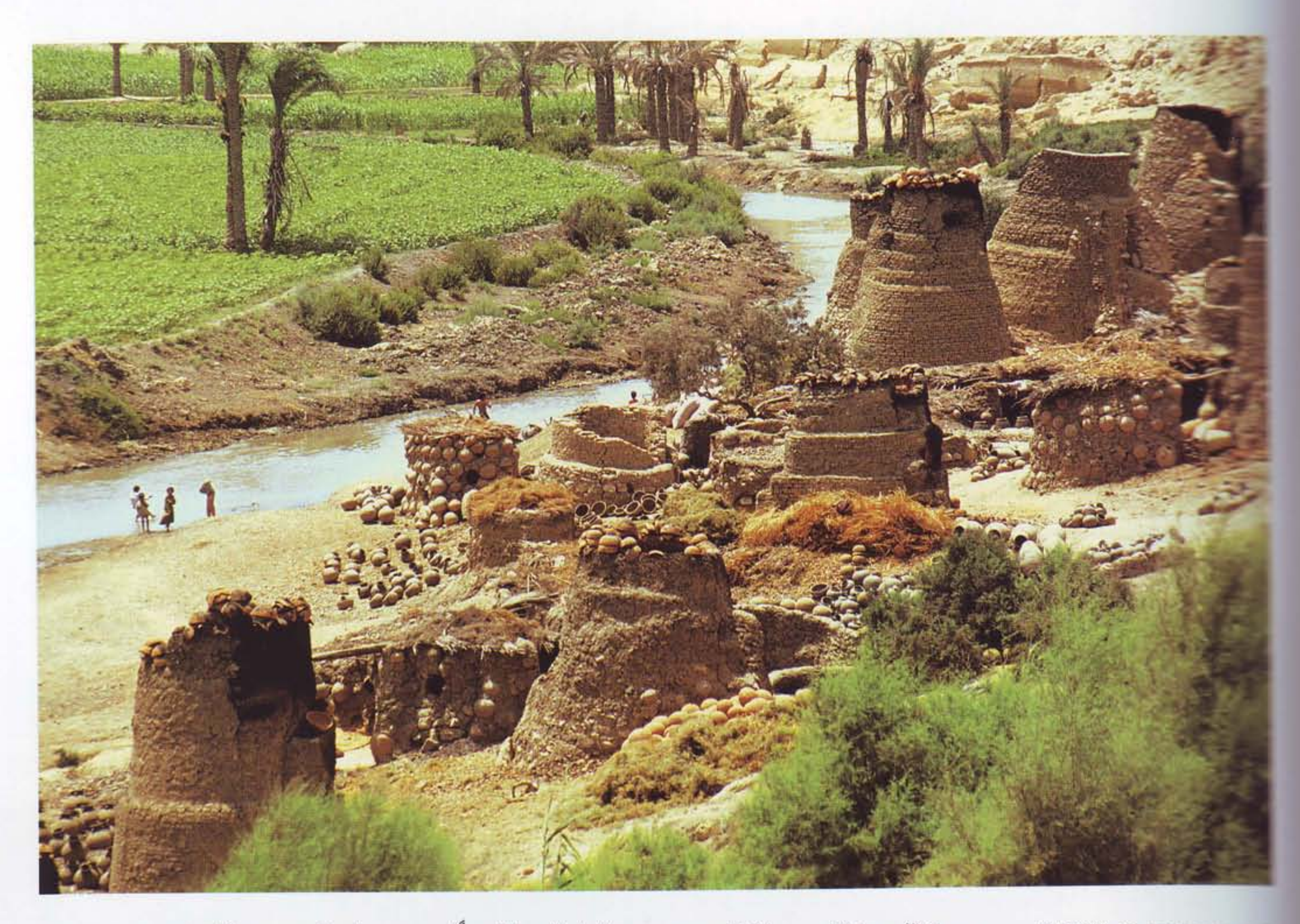
وقد حسَّن مهندسون إغريق فيما بعد نظام أمنمحات للري القائم على الجاذبية في دوران آلاته، وذلك حين أدخلوا طواحين الماء (السواقي) التي تعتمد على انسياب المجرى في رفع الماء إلى صعيد أعلى. ومازال فلاحو الفيوم يستخدمون ما يزيد عن ٢٠٠ من تلك السواقي، وهى مركز لنظام دائري معقد يتم من خلاله اقتسام الماء المتاح بحيث يحق لكل فلاح أن يروي أرضه دائريا لعدد محدد من الساعات يوميًا أو كل أسبوع. على كل حال، لقد أطلق البطالمة هم أيضًا مشروعهم الخاص لاستصلاح الأراضي بالفيوم، وذلك لتسكين محاربيهم المتقاعدين الذين ساعدوهم في غزو البلاد، ونتيجة لذلك بدأت



تصوير: جيردكارلسون



السواقي الخشبية التي تشتهر بها الفيوم أدخلها البطالمة.



...الفخرانية في قرية "النظلة"
... شكل قللهم.

بحيرة قارون تتقلص، وانخفض منسوب الماء إلى ٣٦ مترًا تحت سطح البحر، وبدأ الملح يتسرب إليها. واليوم أهم أنواع الأسماك في بحيرة قارون هى الجمبري والبوري وسمك موسى، التي كان يلزم إدخالها صناعياً. ورغم أن مساحة البحيرة الآن لا تزيد عن نصف مساحتها قديمًا لا تزال هى أكبر بحيرة مالحة في مصر.

وصار سكان الفيوم الساعون لماء الشرب العذب يتجهون لزجاجات المياه المعدنية، ولكن في مناطق كثيرة من الواحة مازلت تستطيع أن ترى الماء محمولاً ومحفوظًا في القلل والأزيار التقليدية من الفخار. ومعظم هذه الأواني الفخارية تأتي من قرية "النزلة"، التي تقع على بعد ٣٥ كيلو مترًا شمال غرب الفيوم. والقلل التي تراها هناك ربما صنعت من أسبوع، ولكن أسلوب صنعها يرجع إلى عهود الفراعنة. فتلك الأواني مصنوعة من فخار مخلوط بالرماد أو بعض القش، وتشكلها اليد بإزميل يسمى "القلاب". أما الذين يريدون إناء مزودًا بذراع أو حافة واسعة فيلجئون للعجلة، وهى اختراع حديث نسبياً أدخله الرومان إلى مصر. ثم تترك تلك الأواني لتجف في الشمس، قبل حرقها في فرن.

وموقع "النزلة"، في الجانب شديد الانحدار لواد ضيق، ممتع للنظر بنفس القدر الذي تمتعك به قلله الفخارية. بل إن ورش "الفخرانية" هى نفسها تتخذ شكل الآنية التي تنتجها، ولكن القادمين بالسيارة أو الأتوبيس لهذا المكان عليهم أن يتذكروا أن الموقع يجعل الطريق للسوق صعبًا على السكان، حيث إن الأواني الثمينة تحملها الحمير صاعدة منحدرًا شديدًا إلى الطريق العام حيث تباع أو تشحن للقاهرة أو إلى ما هو أبعد.

هنا يرقد الجميع في عناق

ما الأقدم من بين تلك الأهرامات؟ الجواب التقليدي لذلك السؤال هو هرم زوسر المدرج بسقارة، لكن بعض الخبراء يعتقدون أن ذلك الركام الملغز بـ "زاوية الميتين" الواقع على بعد ٧ كيلو مترات جنوب المنيا هو الأقدم، وتلك الصفوف القليلة الباقية من الحجر الجيري تبدو وكأنها مجرد خاطرة عابرة عرضت بعد نهاية كل شيء لا نقطة الانطلاق لكل ما تلاها، لكن ربما كانت بساطتها المتداعية هى السر في أن بعض علماء الآثار تخيلوا، حين واجههم لغز وظيفتها، أن المقصود بها أن تمثل الكوم البدائي الذي تم فوقه خلق كل شيء.

واليوم لا يتعدى ارتفاع بقاياه الضحلة خمسة أمتار، ولكن في أوجه لابد أن مظهره كان يختلف كثيرًا: فقد كان يتركب من ثلاث درجات بحيث يبلغ ارتفاعه الكلي ١٧ مترًا، ومثله مثل الأهرامات المدرجة الصغيرة الأخرى، المتناثرة على ضفاف النيل من الفيوم إلى أسوان، يتفق الباحثون على أن تاريخه يرجع إلى الأسرة الثالثة أو بداية الأسرة الرابعة، وليس به حجرات داخلية. ومن الواضح أن أيا من هذه الأبنية لم يكن الغرض منه استخدامه كمقبرة، وبعض الخبراء يعتقدون أنها كانت أبنية تذكارية للموتى لتخليد ذكراهم، بينما ربط بينها البعض وبين مذهب عبادة حورس وست. إلا أن كل هذه النظريات لا تتعدى كونها تخمينات. فبغياب أية أدلة جديدة، ربما سنظل لا نعلم بالضبط ما الغرض منها.

واليوم يرقد هرم "زاوية الميتين" خدًا لخد مع المقبرة البديعة التي يتسمى باسمها المكان - وهى حقًا مدينة للموتى تنتشر على امتداد سفوح جبال الحجر الرملي الصخرية التي تمتد موازية لضفة النيل الشرقية. ويزعم الكثيرون أنها أكبر مقبرة في العالم: فقبورها المقببة المصنوعة من الطوب الطيني تمتد إلى أقصى مدى الأبصار حتى تتماهى مع أرض الوادي وتذوب فيه، كما لو كانت امتدادًا طبيعياً لقشرة الأرض، أو أنها تقريبًا التواء چيولوچي. بعض هذه التذكارات الجنائزية يعود بناؤها لمئات السنين، بينما بعضها الآخر بنى من أسبوع (فالمقبرة مازالت تستخدم)، ولكنها جميعًا تتخطى أبعاد الزمن لبساطتها الشعبية، ولا يوجد فصل طائفي هنا. فالصلبان تميز قبور المسيحيين عن قبور جيرانهم المسلمين الملاصقة لها.

الفصل السادس

ومن تقاليد المسلمين أن يزوروا قبور موتاهم عند اكتمال بدر شهور رجب وشوال وذي الحجة، بينما يعسكر المسيحيون حول مقابر موتاهم ويخيمون أيام مولد أبى حور، المقام في قري مجاورة. أما المثقفون المتمدنون فيقطعون أميالاً وأميالاً لتقديم فروض الولاء لرائدة التحرر النسائي هدى شعراوي، التي قدر لها أن تكون أول من تخلع نقابها وتمارس السفور، وذلك عام ١٩٢٣ وهى تنزل عن قطار في محطة باب الحديد، وهى مدفونة في ضريح مهيب يتميز عما حوله بمشربية جميلة.

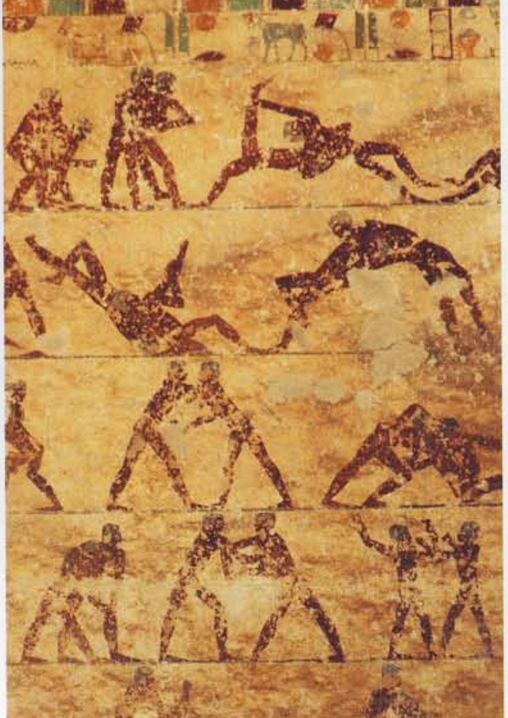
وعلى بعد عشرين كيلو مترًا جنوبًا من المنيا، هناك موقع جنائزي ربما كان أكثر نبلاً. حيث قبور بني حسن الصخرية الشهيرة، واسم المنطقة ينتسب إلى قبيلة عربية استقرت هنا في القرن الثامن عشر، ولكن القبور نفسها تعود للمملكة الوسطى، وهى في الواقع فريدة من نوعها تقريبًا من بين آثار تلك الفترة في أنها ظلت بحالتها الأولى خلال هوس المملكة الجديدة بعمليات إعادة البناء والترميم لما صار في عهدها في عداد الآثار القديمة. وعدد هذه المقابر ٣٩٠ ومعظمها يتكون من حجرتين ومشكاة في الخلفية. وأكثرها إثارة للإعجاب مزينة بصور تعد أقدم نماذج لفن التصوير الخالص استطاعت البقاء.

والمقصود بالتصوير الخالص هنا أنها رسوم مسطحة تمييزًا لها عن النقوش البارزة الملونة للآثار الأقدم. ومناظر تلك الرسوم تميل للحياة الدنيوية. فالموضوع المفضل هو الحرب والتدريبات العسكرية



الهرم الصغير بالقرب من المنيا ليس ضريحاً ، وربما لن نعرف أبداً ماذا كان الغرض من بنائه.





مشاهد للعبة المصارعة ترافق المحافظ خيتي في رحلته للآخرة.

(الصفحة المواجهة) المسلمون والمسيحيون يوحدهم الموت في مقابر المنيا الكبيرة.







مقبرة خيتي تم نحتها مباشرة في صخرة التل.

(في الاتجاه المقابل) الأطفال الذين يحبون الحلوى يساعدون في عصر القصب.

والألعاب وصيد الحيوانات عجيبة الأشكال، إضافة لمجموعة أخرى من الأنشطة. ولا تضارعها من حيث الطزاجة أية رسوم أخرى إذا نظرنا إليها كإطلالة كاشفة لوقائع الحياة اليومية التي كانت تجري منذ آلاف عديدة من السنين.

ومن الأمثلة النموذجية لهذا النمط مقبرة "خيتي"، الذي كان حاكم ولاية أوريكس (المقبرة ١٧). تغطى جدران المقبرة رسوم لقوارب وأفراس نهر وراقصين وبساتين كروم، وأحد الجدران مكرس لموتيفة شائعة وهى مناظر المصارعة، وحائط آخر يصف لنا التفاصيل الحميمة لحياة خيتي الزوجية - بما فيها إزالة بكارة الزوجة - وهى أنشودة للخصوبة توازيها على نفس الجدار مشاهد تزاوج لحيوانات متعددة. ووادي النيل عند المنيا مزدهر وعريض، والصناعة التقليدية هناك قائمة على قصب السكر، حيث تشتهر المنطقة بعسلها الأسود. وحقول القصب في ذروة نمائه مشهد مثير للإعجاب، حيث ترتفع قامة عود القصب فوق قامة الإنسان، وكثير من القصب يتم تصنيعه محلياً فيما يسمى بمعاصر القصب وهى ورش تعمل آلاتها يدوياً. وفي موسم الحصاد الذي يمتد من يناير حتى أوائل مايو، يمكن بسهولة التعرف على موقع معاصر القصب عن طريق الدخان الأسود المتصاعد من مداخنها، والقصب يقشر ويستخرج عصيره باستخدام آلة عصر بسيطة. ثم ينقل العصير إلى "غرفة النحاس" حيث يتم غليه عدة مرات وكشط سطحه لتنقيته من الشوائب، ثم ينقل العسل الأسود الناتج إلى غرفة ثالثة لتعبئته. والنتيجة دبقة، شديدة الحلاوة، ولذيذة الطعم - خصوصًا إذا أكلت بالطحينة. إلا أن انفتاح سوق السكر في مصر طبقًا لقوانين منظمة التجارة العالمية والإيقاع المطرد لأسعار الغاز الطبيعي والبترول وضرائب المبيعات تعني أن فرصة صناع العسل الأسود في البقاء تزداد صعوبة يومًا بعد يوم، ونتج عن هذا أن السلع الرديئة ذات الإنتاج واسع النطاق أغرقت السوق، بينما تواجه هذه الصناعة اليدوية الإقليمية ومنتجها اللذيذ خطر الانقراض.



معارك الموتى

الفصل السابع

رغم أنها لا تظهر إلا في القليل من المنشورات السياحية في الوقت الحاضر، كانت أبيدوس من أهم مدن مصر القديمة، حيث كانت تقام هناك طقوس عبادة أوزيريس، وهناك أيضًا كان كثير من المصريين يريدون أن يرقد جثمانهم بعد الموت.

فمن كان أوزيريس حتى يكون له هذا السلطان على الأحياء؟ كان إله الموتى الأعظم بجلالة قدره. لكنه في حياته كان إنسانًا، ويقال إن مصر بلغت طور الحضارة وعبرت مرحلة الهمجية تحت حكمه، وإن أوزيريس هو الذي علم شعب وادي النيل فنون الزراعة وسيادة القانون.

وفي أبيدوس تجد أوزيريس في كل مكان، وبالذات على جدران معبد سيتي الأول البديع، والمعبد يفخر بعدد من النقوش البارزة الجميلة التي تصور "سيتي" وهو يقدم فروض الولاء لمولاه. وفي إحدى تلك النقوش صور الملك بجانب إيزيس ـ أخت أوزيريس وزوجته ـ حاملاً عموداً يستقر على قمته رأس الإله. ويشير ذلك النقش إلى اكتشاف حدث على يد مجموعة من مصريي الأسرة الثانية عشرة عنّ لهم أن يكونوا أول علماء مصريات قدماء ينقبون عن آثار مصريين أقدم منهم، فقاموا بأعمال حفر في مقبرة "دبير"، وهو من فراعنة الأسرة الثانية، وأثناء الحفر عثروا على رأس آدمي، فزعموا أنه رأس أوزيريس. وكانت أبيدوس في ذلك الوقت قد أصبحت مركزًا رئيسياً لعبادة أوزيريس. ولكن بعد العثور على رأس الإله صارت محجًا رئيسياً للمصريين القدماء يضارع مكة والقدس في العصور اللاحقة، وكانت تقدم كل عام هناك في أوان الحج مسرحية رمزية تصور حياة أوزيريس وموته، وكان المدخل لمملكته يمر من خلال واد ضيق منحدر بين الجبال الصخرية على الضفة الغربية للنيل. ويبرهن على شعبية أوزيريس ملايين ـ والرقم هنا نعنيه حرفياً ـ من نذور الأواني الفخارية التي خلفها الحجاج وراءهم والتي أعطت مقبرة "دبير" اسمها الحديث. "أم الجعاب". فكيف كان لأوزيريس كل هذا السحر على قلوب المصريين القدماء؟ ربما لأنه لم يعدهم بالحياة الآخرة فحسب بل بالميلاد من جديد.

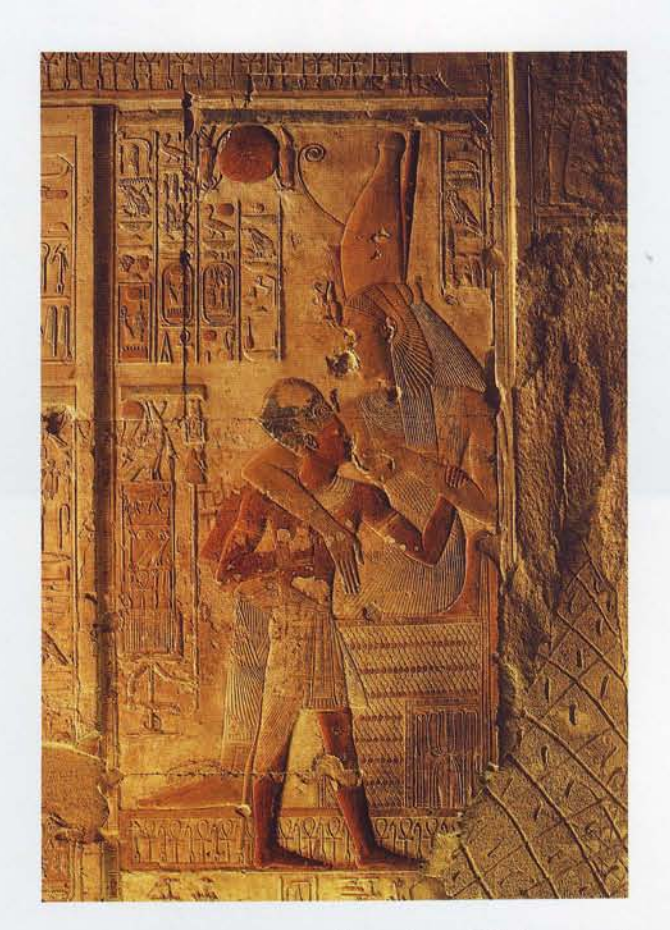
تقول الأسطورة إنه حكم البلد بحكمة ولمسة خصب مثمرة بلغت حدًا أثار غيرة أخيه "ست" إله العواصف والصحاري. لقد أراد ست أن يحل محل أوزيريس ملكًا وزوجًا لإيزيس أيضًا، ولهذا فقد رسم خطة. وحين عاد أوزيريس من سفرة طويلة، استقبله ست بترحاب، وأعلن إنه سيقيم وليمة كبرى ابتهاجًا بعودته. ولكن تلك الاحتفالات لم تكن إلا حيلة "لاصطياد الملك".

فبمساعدة اثنين وسبعين متآمراً، جهز ست نعشًا فخمًا على مقاس أخيه. وبالنسبة للمصريين القدماء، الذين كان الذهاب إلى الدار الآخرة في أبهى زينة يعني لهم الكثير، لم تكن هناك هدية يمكن تصورها تفوق في قيمتها نعشًا جميلاً. وبعد أن انتهى الجميع من الطعام، أزاح ست الستار عن الصندوق البديع، وقال إنه سيكون مَنْ نصيب من يأتي على مقاسه من الضيوف. وواحدًا بعد واحد، دخل الضيوف الصندوق وخرجوا منه دون أن يطابق أحدهم سعته، حتى جاء دور أوزيريس. بمجرد أن رقد الإله الأعظم آمنًا مطمئنًا في الصندوق الذي جاء على مقاسه صفق ست غطاءه بعنف وبسرعة أحكم غلقه بالمسامير، ثم بمساعدة حلفائه رماه في النيل.

إلا أن النيل المقدس كان من الطهر بحيث لا يجرؤ على الاشتراك في قتل إله، وعلى الفور لفظ الصندوق من قاعه للسطح وتركه يهيم في موج البحور، وتحطم قلب إيزيس التي رأت بعينيها اغتيال زوجها، وقررت أن تسعى خلفه بحثًا عن بقاياه. وأخيرًا عثرت عليه في بيبلوس في لبنان، واقعًا في فخ شجرة عجيبة يعبدها البلاط الملكي هناك، وأقنعت إيزيس ملك بيبلوس أن يرد لها جثمان أوزيريس، وأعادته

إيزيس وسيتي يتعبدان عند عمود دبير – وهو عمود يحمل رأس أوزيريس.





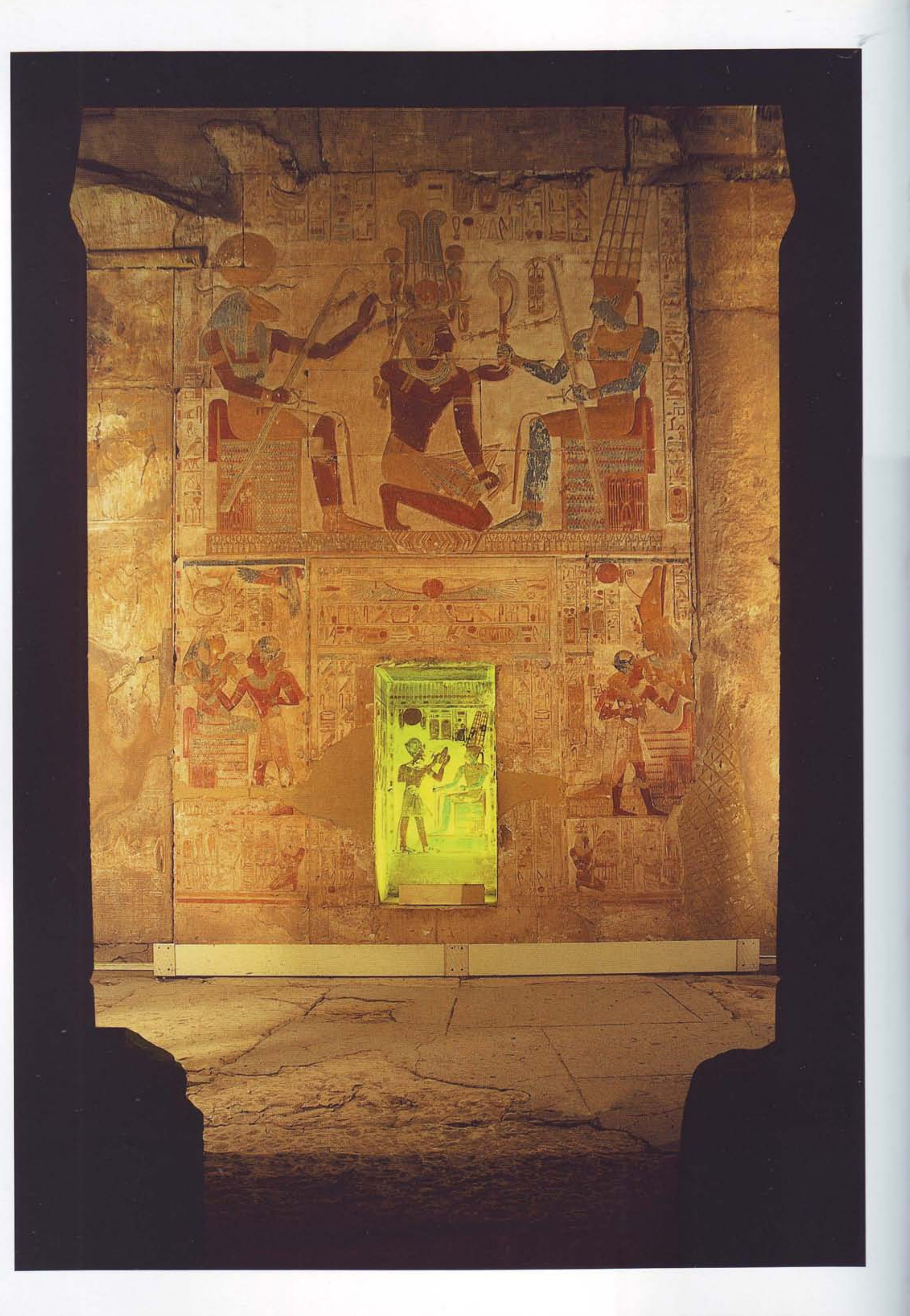
سيتي يؤكد حقه المقدس في أن يحكم وذلك عن طريق الرضاعة من ثدي الربة "موت" زوجة آمون (وفي المقابل تفصيلة من اللوحة).

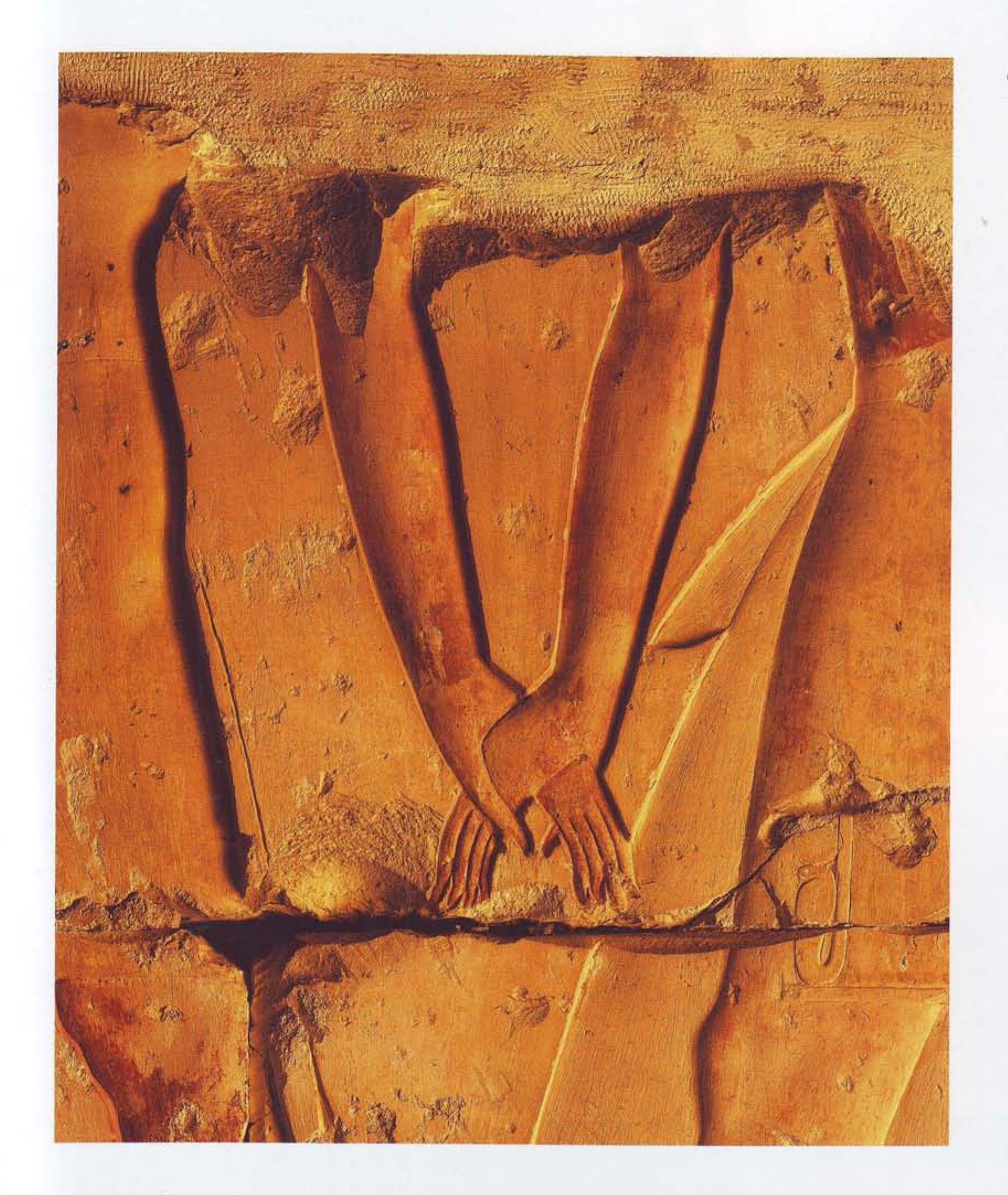
في الاتجاه المقابل: في الجزء العلوي، يتسلم الملك قوس النصر من آمون ذاته بينما يصوره الجزء السفلي وهو يقدم القرابين لرب الأرباب.

إلى مصر آملة أن تدفنه هناك.

وحين علم ست بما فعلته إيزيس، اجتاحته عاصفة من الغضب، وانتزع جثمان أوزيريس منها ممزقًا إياه إلى أربعين شلوًا، وبعثر الأشلاء في أربعة أركان البلاد. ومن جديد بدأت إيزيس رحلة سعي طويلة ومضنية بحثًا عن أشلاء زوجها الميت، واستطاعت في النهاية أن تعيد تجميع الجثمان عدا جزءًا واحدًا ـ العضو الذكري الذي أكله سمك النيل (وهذا يفسر اعتبار المصريين القدماء بعض أنواع السمك غير صالحة للاستهلاك الآدمي) إلا أن إيزيس كانت إلهة هى الأخرى، ولديها القدرة المباركة على شفاء المرضى، صاغت عضوًا تناسلياً صناعياً لزوجها، ثم ألقت عليه تعزيمة سحرية لكي يبعث حياً، وأثبت سحرها أنه أقوى من الموت: وأعتى من كل طاقة ست على الكراهية، عاد أوزيريس حياً ولمدة كافية لأن يهب إيزيس ولدًا تحمله في بطنها ـ حورس ـ الذي سيطرد ست انتقامًا لأبيه حين يبلغ أشده بعد أن ينزله قسرًا من على العرش.

ولابد أن حكاية أوزيريس كانت تثير إعجاب سيتي، وذلك لأسباب عدة. الدارسون المحدثون يقرءونها على أنها أمثولة رمزية مغزاها الفيضان السنوي لنهر النيل، لكن الأسطورة لابد كانت تعني شيئًا أكثر مباشرة وهو النضال من أجل استعادة شرعية واستقرار النظام السياسي بعد أن دمره مغتصب فاسد. فهذا بالضبط الدور الذي كان سيتي يرى فيه نفسه. وبالفعل كان سيتي وولده رمسيس الثاني هما اللذان سيقيمان شرف المملكة الحديثة من رقدة الموت بعد مرحلة تل العمارنة الكارثية سياسياً وذلك بإعادة فتح معظم أراضي النوبة وفلسطين والشرق الأدنى التي ضيعها إخناتون. ولكن لكي يصور نفسه ملكًا شرعيا، كان على سيتي أن يثبت الكثير. فقد مات حور محب آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة بلا وريث، ولم يكن رمسيس الأول والد سيتي ومؤسس الأسرة التاسعة إلا ابن وزير،





إله انمحى رأسه بفعل عوامل الزمن يقود رمسيس من يده عبر أحد جدران معبده.

ولهذا سعى سيتي لبناء معبد عظيم ـ وذلك لغرض مزدوج هو تمجيد إله الموتى معبود الأسلاف وفي نفس الوقت إقامة أثر لعظمته الشخصية كملك شرعي للبلاد والإله المنتظر، والبناء ينقسم لسبعة هياكل صغيرة لسبعة آلهة يتوسطهم أوزيريس، وأحد الآلهة الواقفين سيتي نفسه، مصوراً وهو يلتقم ثدي الإلهة ماعت للتأكيد على أنه ولد من جديد ليكون من أبناء المملكة الإلهية.

ولقد استمر ملك سيتي أربعة عشر عامًا فقط، وتركت مهمة إتمام عمله لولده رمسيس الثاني، وشرع رمسيس على الفور في بناء معبد خاص له على بعد مائة ياردة فحسب من معبد أبيه، ذلك أنه كان مصممًا ألا يطغى لمعان أبيه على بريق مجده هو، ولكي يضمن أن أثره لن يفوقه معبد أبيه الذي كان العمل مازال يجري فيه، سحب رمسيس أمهر الصناع منه لكي يعملوا في معبده هو، وكانت النتيجة أن زخارف المرحلة الأخيرة من بناء معبد سيتي تقل كثيرًا من حيث المستوى عن تلك التي تمت أثناء حياته.

إلا أن الزمن فاق رمسيس مكرًا رغم كل ما بذله من جهد . فاليوم نرى أن معبد سيتي هو الذي صمد لتخريب الطبيعة والتاريخ: صحيح أن فناءه الخارجي سُوي تقريبًا بالأرض، لكن ما عدا ذلك يظل المبنى أحد أبهى آثار المملكة الحديثة وأكثرها إثارة للإعجاب، وربما في تاريخ الحضارة المصرية على الإطلاق.

وقبل العثور على رأس أوزيريس في زمن الأسرة الثانية عشرة بكثير كانت أبيدوس المكان الذي يتمنى صفوة المصريين أن ترقد فيه عظامهم، أو أن يبنوا نصبًا رمزيًا يضمن لهم دخولاً ميسرًا للعالم الآخر. وهكذا بدأ تقليد يفوق بكثير من حيث القدم عصر بناء الأهرام، حيث يعود تاريخه إلى ما قبل الفراعنة (أى قبل عام ٣٠٠٠ ق.م). ورغم أن القبور التي بقيت من ذلك العهد لا تتمتع بروعة الآثار اللاحقة، إلا أنها تمدنا بـ "الحلقة المفقودة" - ذات الأهمية الجوهرية - بين تقاليد الدفن سحيقة القدم وبين الأهرامات الهائلة التي ستظهر في عهد الأسرة الثالثة، وكثير منها كان يغطيها مستطيل متواضع من الحجر مكسو بقشرة من الطوب الطيني. ورغم أن تلك القبور في الوقت الحالي نهشتها عوامل النحت والتعرية، هناك علامات على أنها كانت يومًا مُدَرَّجَة. نفس الأمر ينطبق على كوم مماثل لكن أكبر بكثير يقوم في داخل فناء مسور من الأسرة الثانية بناه خاسيخموي، والمكان اسمه الآن "شون الزبيب"، ويراه العديد من علماء المصريات نموذجًا أوليًا للهرم الحق. وحتى الآن لم يتم العثور إلا على نموذجين للهرم الحق في أبيدوس وما حولها. وطبقًا لنصوص الفراعنة، بنى تحتمس الثالث أيضًا هرمًا هنا، ولكن لم يعثر له على أى أثر. ومن بين الهرمين الباقيين - وكلاهما أنقاض - يقع الأقدم على بعد ٨ كيلو مترات جنوبًا من أبيدوس عند قرية اسمها "نجع الخليفة". وهى بناء مدرج بسيط من الحجر الجيري والملاط، وصفوف الحجر المتبقية يبلغ ارتفاعها ٤ أمتار فقط.

ومن المفترض أن هذا الهرم بناه "حوني"، آخر فراعنة الأسرة الثالثة، الذي أقام أهرامًا صغيرة عديدة في كل أنحاء صعيد مصر، والاسم الشائع للهرم، هرم "السونكى" (على اسم السلاح الأبيض المثبت في بعض البنادق) لأنه تم العثور على جثث كثيرة بها طعنات في القبور المحيطة به. ومن الممكن أن تكون هذه جثث بعض رجال البلاط والعبيد تم إعدامهم أو إجبارهم على الانتحار، وذلك ليلحقوا بمليكهم في الحياة الأخرى.

وإذا كان "السونكى" ينتمي لأقدم عصور بناء الأهرامات، فإن هرم أحمس هو درة تلك العصور، وأحمس شخصية عظيمة في التاريخ المصري. فحكمه الذي دام ٢٥ عامًا أعلن بدء المملكة الحديث بتحريره مصر تمامًا من احتلال الهكسوس. وقد عثر على موميائه في مخبأ بالدير البحري، ولكن موقع قبره



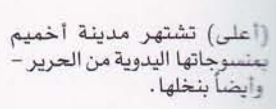
تخفي البقايا المتواضعة لهرم السونكى حكاية بشعة عن مجزرة جماعية - أو انتحار.



هذا التل الصغير الذي لا اسم له هو هرم أحمس: لقد غطاه منقبو الآثار بالرمال لحمايته.

الفعلي لم يستطع أحد تحديده، واستعدادًا لموته شيد أحمس لنفسه نصبًا عظيمًا عند الحافة الجنوبية لأبيدوس، واحتوى ذلك المجمع المعماري واسع النطاق على معبدين إضافة للهرم نفسه الذي بلغت مساحته ٧٠ مترًا مربعًا، وكان هذا آخر هرم بني في مصر. وكل ما تبقى منه اليوم كومة منسفحة تتكون من هديم القلب وشظايا من قشرته الحجرية. إلا أن هذا الموقع أثبت أنه استثنائي الثراء. فأعمال الحفر خلال العقد الأخير كشفت الغطاء لا عن أبنية جديدة فحسب بل أجزاء من نقوش جدارية بارزة تحوي أقدم تصوير للجواد في الفن المصري القديم.

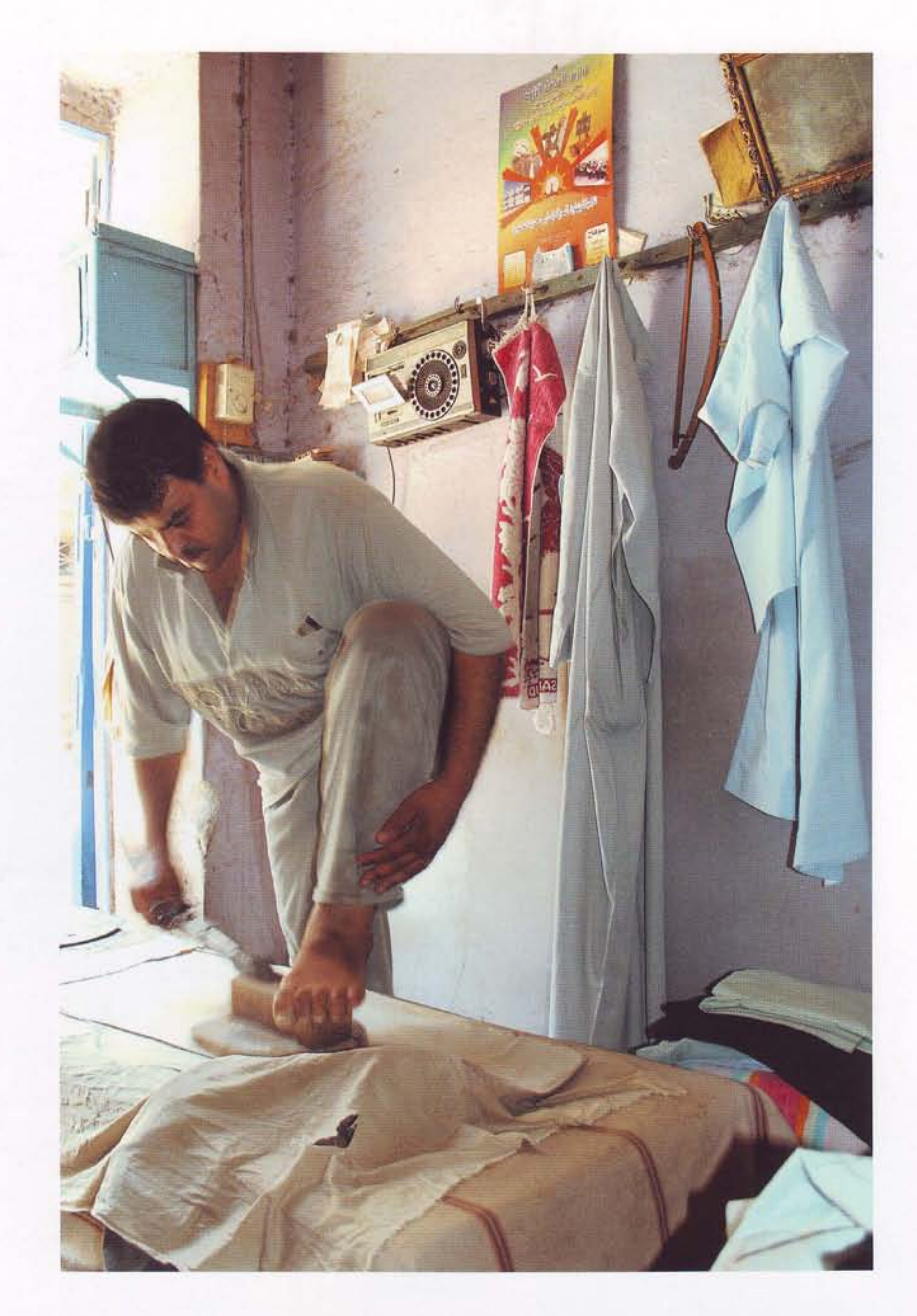
وفي جنوب أبيدوس، بالقرب من عاصمة محافظة سوهاج يقع كنز آخر يبدو بسيطًا متواضعًا وهو مدينة أخميم، إن الحياة الحديثة التي شوهت العديد من مدن مصر يبدو أنها مرت عابرة بأخميم غافلة عنها. هنا مازالت النسوة يحملن الماء فوق رءوسهن في أواني الفخار، ويعيش الناس من صناعات يدوية متوارثة جيلاً عن جيل، ويمر سائقو الأجرة بأعجوبة خلال الأزقة الضيقة في سيارات يعود تاريخ صنعها إلى ثلاثينيات القرن العشرين أو أربعينياته. وفي الواقع كل طرقات المدينة معبدة بالقذارة عدا واحدًا. ومن مناظر أخميم التي تشتهر بها "المكواة الرِّجل"، حيث تكوي الجلابيب بمكواه تمسكها أصابع القدم. وما قد يبدو إنجازًا مهارياً يشبه الجمباز ما هو إلا تطبيق بسيط للفطنة، فالجلابية تبلغ من الطول حدًا يصعب معه كيها باليد إن لم يكن مستحيلاً. ولكن على طاولة طويلة منخفضة وباستخدام أقصى متناول للبدن تصبح العملية شديدة البساطة، والمكاوي المستخدمة صناعتها يدوية وتباع مثنى، وتسخنان على الجمر بحيث تكون إحداهما تحت التسخين بينما الأخرى تكوي، والنتيجة أسرع وأكفأ من المكواة



(أعلى) تشتهر مدينة أخميم بمنسوجاتها اليدوية من الحرير - وأيضاً بنخلها.

(على اليمين) الصناعات التقليدية هى مهنة للعائلة كلها.

"عروس أخميم" تم اكتشافها عام ١٩٨١، ومازالت هويتها غير معروفة.



"المكواة الرِّجل" هى أكثر وسائل التعامل مع الأثواب الطويلة عملية.

الكهربائية، لكن في القاهرة، مدينة التقدم والسرعة، انقرضت "المكواة الرجل" من عشرات السنين. ومدينة أخميم تشتهر في مصر كلها بصناعاتها اليدوية. الحرائر المنسوجة يدوياً والأقطان، والسلال المجدولة من سعف النخل التي تُصنع وتُباع خلف كنيسة القديس "أبو سيفين". وتحكي الأساطير كيف أن أكفان الفراعين أنفسهم كانت من حرير أخميم.

وإذا كان هناك شيء يجر أخميم إلى القرن الحادي والعشرين فهو ـ ويا للمفارقة ـ ماضيها السحيق. فهناك مركز ديني كبير يستمد اسمه من إله خصوبة محلي هو "خنتي ـ مين"، مازالت معظم كنوزه الأثرية لم تكتشف بعد، ويرقد مدفونًا تحت أخميم مباشرة، وبالتحديد تحت مقبرتها الإسلامية الحديثة. وكانت النتيجة معركة عجيبة بين موتى الفراعنة والموتى الذين ينتمون للماضي القريب. فقد كافح سكان أخميم طويلاً ضد محاولات إطلاق تلك الأرواح القديمة على حساب إقلاق راحة أحبائهم الذين دفنوا في زمن أحدث، والواقع أنه لم يتم أى اتفاق في وجهات النظر إلا في السنوات الأخيرة وبوساطة



تبقى السلال المجدولة من خوص النخيل إحدى الدعائم الأساسية للاقتصاد المحلي.

الحاج زين كبير مفتشى الآثار في سوهاج وشيخ واحدة من أكبر القبائل هناك. وقد تم الآن التخطيط للانتقال التدريجي للقبور حديثة العهد إلى موقع جديد وذلك خلال ست سنوات. وذلك سيخلي السبيل لأعمال حفر شاملة للموقع. ومما قد ينبئنا عن طبيعة ما سيستجد تمثال بديع لإحدى الأميرات يبلغ ارتفاعه ١٢ مترًا وتم استخراجه ١٩٨١ وكان الظن أن التمثال لمريت آمون ابنة رمسيس الثاني، كما هو مسجل في خرطوش منقوش في القاعدة، ولكن يعتقد جاب الله على جاب الرئيس السابق للمجلس الأعلى للآثار أن التمثال ينتمي أسلوبًا لمرحلة تل العمارنة. وربما، حين تبدأ أعمال الحفر التالية، يستطيع علماء الآثار أن يحلوا أخيرًا لغز أميرة أخميم.

إله يتخفَّى . . . وقبور تختبئ

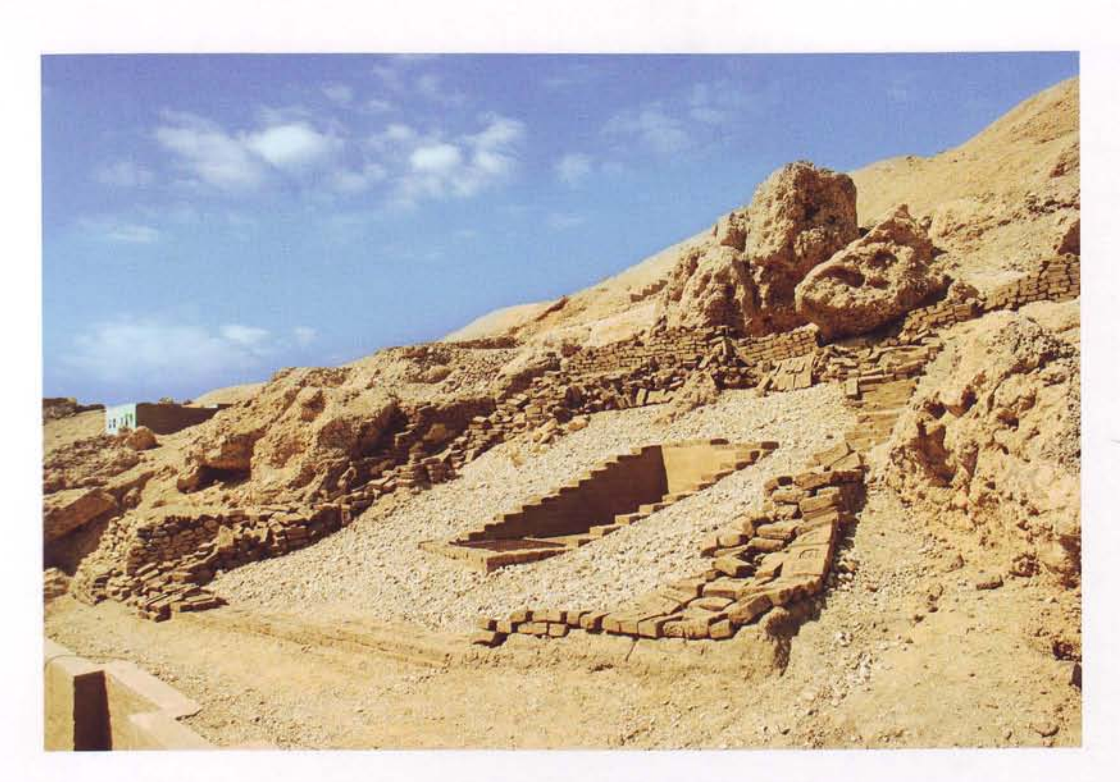
الفصل الثامن

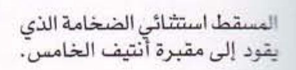
حين نفكر في الأهرامات نفكر في الجيزة، وفي عظمة تلك الآثار التي وهبنا إياها فراعنة المملكة القديمة، ولكن للأقصر أيضًا أهراماتها، وتلك من ضمن شهقات الموت الأخيرة لتراث الأهرامات. والواقع أنه من الصعب تخيل بناء ثلاثي الأضلاع أشد تباينًا مع "هرم خوفو" من تلك القبور الصغيرة، (ومعظمها لأشخاص عاديين) التي بنيت في مواقع متناثرة على ضفة النيل الغربية في منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد ـ أى بعد توقف العمل في هضبة الجيزة بألف عام.

وتنقسم الأهرامات اللاحقة إلى مجموعتين. الأولى يعود تاريخها لعصر الانتقال الثاني ـ وكان عصرًا يسوده الاضطراب والعنف الاجتماعي والتزعزع السياسي، وكان صعود نجم حكام الأقاليم في المملكة الوسطى قد أضعف سلطة الملك حتى كسرها، وانعصرت مصر بين زحف النوبيين من الجنوب ودخول الهكسوس من بوابتها الشمالية، فتحولت مصر العجوز إلى سلالة تافهة من الفراعنة المقزمين الذين ظلوا يحكمون طيبة، وكلما تقلصت هيمنتهم على البلاد زاد تمسكهم بالتقاليد القديمة، ولعجزهم عن البناء في مدافن الشمال صاروا يدفنون ملوكهم في منطقة "دراع أبو النجا" بالقرب من "الجرنة" على ضفة النيل الغربية، وفوق جثمانهم أقاموا سلسلة من الأهرامات شديدة الضآلة وشديدة الانحدار (بزاوية ٦٠ درجة) ولا يتعدى ارتفاعها عشرة أمتار، وهى من الطوب الطيني. واليوم تكاد تكون قد اختفت تمامًا، وإن كان فريق من الباحثين الألمان بدءوا أعمال حفر للكشف عن القليل المتبقي منها، ولكن في حين بنائها لابد أنها بدت محاكاة ساخرة لمقابر أسلافهم: مدينة فرعونية في حجم لعبة يعكس مداها المنزلي الصغير ـ دون قصد، أو ربما دون رغبة ـ مقدار الهوة بين صانعيها وبين تلك القوة الإلهية التي كانت تسري في أعمال أجدادهم.

وكان أنتيف الخامس من الأسر السابعة عشرة أحد هؤلاء الفراعنة. وهو معروف أيضًا باسم "نوب ـ خفرع"، وجلس على العرش عام ١٥٧٠ قبل الميلاد (أو حول ذلك التاريخ). وكانت هناك معلومات عن وجود مقبرة له من عدة مصادر، ولكن أعمال الحفر للبحث عنها لم تبدأ إلا عام ٢٠٠١ وتبين حينها أنه لم يتبق منها إلا أقل القليل، كانت قد تم نهبها عام ١٨٢٧ بواسطة لصوص الآثار المحليين، بينما يرقد نعش الملك الخشبي في مخزن المتحف البريطاني منذ ثلاثينيات القرن الماضي. وحتى بعد بنائه مباشرة، لم يكن في ذلك الهرم ما يبهر. فمساحة قاعدته لم تتعد ١١ مترًا مربعًا، والبناء كله بلغ ارتفاعه ١٣ مترًا فقط، ومن الواضح أن نهب المقابر كان مشكلة مزمنة عبر العصور. فبردية "أبوت"، التي يعود تاريخها لعام ١١١٠ ق. م، تحوي سجلاً رسميًا عن تحقيقات أجريت حول الحالة التي وصل إليها عدد من المقابر الملكية في طيبة، ويتضمن تقريرًا حول محاولة بعض اللصوص المحليين اختراق هرم "نوب ـ خفرع" بحفر نفق يفضي إليه عبر مقبرة "شورري"، وهو موظف من زمن الأسرة التاسعة عشرة. إلا أن هرم "أنتيف" يحق له أن يتباهى بزعم وحيد يرشحه للشهرة. فإذا كان فريق العمل الألماني على حق، يكون هذا هو الهرم الحقيقي الوحيد في الأقصر، بمعنى أنه الوحيد الذي كان يومًا يحوي جثمان ملك، فكل الأهرامات الباقية كانت إما نصبًا مبنيًا بجوار مقبرة مستقلة للملك، أو قبورًا للعوام.

وكان أحمس الأول مؤسس المملكة الحديثة آخر مَنْ بنى هرمًا في "دراع أبو النجا". وبعض علماء الآثار يعتقدون أن ذلك الهرم كان لأخيه "خاموس"، فجثمان الفرعون نفسه لم يعثر عليه أحد، ولكن من المؤكد أن قد بنى لنفسه آخر هرم ملكي عظيم وذلك في أبيدوس في الشمال، وكان أحمس أيضًا هو مَنْ طرد الهكسوس أخيرًا من مصر، بل غزا أجزاء من فلسطين أثناء مطاردته لفلولهم، وأقام حدودًا متينة بين





المسقط استثنائي الضخامة الذي يقود إلى مقبرة أنتيف الخامس.

(أسفل) مقبرة ثونفر - أحد الأهرامات الصغيرة الشخصية على الضفة الغربية. ويعود تاريخها للمملكة الحديثة.

ملكه وبين النوبة جنوبًا؛ وبذلك أرسى قواعد النهضة الأخيرة للمجتمع الفرعوني، وفي نفس الوقت، وضع لاهوت الشكل الهرمي وجمالياته في سلة الماضي. فمن ساعد أحمس على تحقيق النصر كان آمون إله طيبة، وبصعود نجم آمون في المملكة الحديثة توارى إله الشمس والعقيدة الشمسية الرمزية التي كانت وراء المشروع غير العادي للأهرامات وأصبحت مجرد عنصر بين عناصر عديدة تكون معًا ديانة جديدة أكثر تجريدًا وتعقيدًا. فمَنْ كان آمون؟

لا تعود عبادة آمون في طيبة لما قبل الأسرة الحادية عشرة، فهو إله حديث نسبياً. وحتى تأسيس المملكة الحديثة لم يكن سوى إله محلي صغير. إلا أن امتنان أحمس لولي نعمته المقدس سرعان ما رفعه للصدارة، لا في مجمع آلهة طيبة فحسب، بل في كل أراضي مصر، وكلمة "آمون" تعني حرفيا "الخبيء". والواقع أن كثرة من اللاهوتيين المصريين زعموا إن الإله ظل مجهولاً للبشر لا من حيث شكله الفيزيقي فحسب بل حتى اسمه الحقيقي، وذلك لأن كليهما في الحقيقة ومن حيث الجوهر فوق علم الإنسان. وبعكس كل آلهة الخلق المصريين الذين سبقوه، كان آمون يقف خارج الكون تمامًا، وكان عباده يتصورونه إلهًا خلق نفسه ويخلق نفسه كل حين من جديد، وكان يستطيع اتخاذ أشكال كثيرة، ولكن لا يمكن تحديده في شكل بعينه. وطبقًا لبعض المصادر، كان آمون يفضل التحول لأفعى تغير جلدها، وذلك حتى يتمكن من أن يولد ثانية. ورغم كونه خبيئًا، كان يتجلى للبشرية في صورة رع، ونتيجة لهذا وجد إله الشمس نفسه مجبرًا على النزول عن عرشه. فمن قمة التصاعد الهرمي لمجمع الآلهة، أصبح الآن مجرد أحد تجليات المطلق المقدس ـ ربما كان أهمها، ولكن ذلك لم يعطه حولاً ولا قوة. وفي نفس الوقت، مرت النظرية السياسية في مصر بتغيرات موازية لما حدث في اللاهوت، وأصبح الملك نفسه أحد تجليات

الهرم - المقبرة الخاص بـ "باكنخونس" تفخر بأنها تطل على منظر رائع للنيل.



الألوهية في قالب إنساني، لا كما كان قديمًا بشرًا فانيا يطمح أن يبلغ مصاف الآلهة عند موته، وبحلول عهد رمسيس الثاني، كان آمون بنفسه يحكم مصر في شكل الملك، لم يحدث من قبل أن أحكمت الآلهة قبضتها على مقاليد الأمور في مصر بهذا الانفراد المطلق.

وربما يرجع موت الأهرام إلى حد ما لذلك النهب والسلب المعربد الذي ظل سادرًا في غيه بلا انقطاع منذ نهاية المملكة القديمة، والذي كانت تزيده عتوًا عصور الاضطراب السياسي. لقد ظل فراعنة المملكة الحديثة يعطون للشمس مكانة خاصة في رؤيتهم للكون، ولكنهم أرادوا لقبورهم أن تتوارى بمكر لتجنب مصير قبور أسلافهم. وكان الحل الذي وجدوه بسيطًا. لقد جعلوا من جبال ضفة النيل الغربية سلمًا طبيعيا نحو السماء، وبنوا على سفوحها معابد جنائزية عظيمة وواضحة كالشمس، حيث يستطيع الجميع زيارتها وتقديم فروض الاحترام، ثم جعلوا جثمانهم يرقد مختبئًا في مواضع سرية في أعماق سفوح الجبال حيث لا يمكن معرفة مكانه أو الوصول إليه بفرض إمكانية تحديد المكان. وبالطبع أخفقوا في مسعاهم. فمع حلول زمن الأسرة العشرين كانت تلك القبور تنهب على نطاق واسع. ولكن لحسن الحظ قرر الكهنة الذين يحرسونها أن يفعلوا شيئًا، فأعادوا دفن الكثير من محتوياتها في مخابئ ضخمة بحيث لم تتم إعادة اكتشافها إلا في القرن التاسع عشر.

وربما كانت مقبرة نفرتاري زوجة رمسيس الثاني أروع هذه القبور. ومجرد قدرتنا على زيارة تلك المقبرة هى في حد ذاتها شهادة لتفاني وحماسة أجيال من علماء المصريات. وقد اكتشفها الإيطالي "إرنستو شياباريللي" في عام ١٩٠٤ وتم إغلاقها بعد ذلك مباشرة لتعرض رسوماتها الثمينة لتلف كبير نتيجة تعرضها للهواء الجوي. وفي عام ١٩٨٦ بدأ مشروع ترميمها أخيرًا بجهد مشترك بين هيئة الآثار المصرية

مع حلول المملكة الحديثة، أدار الفراعنة ظهورهم للنهر ولبناء الأهرامات، واتخذوا ملاذهم في وادي الملوك.





نفرتاري ، الملكة "ذات الوجه الجميل".

ومعهد "جيتي" لترميم الآثار.

وبعد مرور ٥ سنوات وبتكلفة ستة ملايين دولار، عادت الجداريات مذهلة كما لابد أنها كانت حين الانتهاء من إبداعها الأول. إلا أنه لكي تظل تلك الجداريات على حالتها المثلى لا يسمح بزيارتها لما زاد عن ١٥٠ زائراً يومياً، ولا يستطيع هؤلاء البقاء لمدة تزيد عن عشر دقائق.

"حبيبتى، انت و بس، زيك مافيش

زايدة حلاوة عن جميع النسا

منورة، كاملة،

نجمة على خط السما ف رأس السنة هالة

سنة طيبة إنشالله"

لم تكن نفرتاري زوجة رمسيس الوحيدة، ولكن تلك السطور التي كتبها لها توحي بأنها كانت لها مكانة خاصة في قلبه. كما يؤكد مكانتها العليا ذلك المعبد الذي أهداه لها في أبى سمبل، وكذلك روعة مقبرتها بالأقصر. وفي كل الحالات صورت نفرتاري في صحبة الآلهة، مرتدية ثوبًا أبيض شفيفًا ضافيًا، وتاجًا ذهبيًا له ريشتا نسر، والنسر هنا يوحد بين الملكة و"موت" زوجة آمون، ويرسخ مقام الزوجين الملكيين كتجليين للقدوس اللامتجسد في ذاته. وفي الجداريات المحيطة بقبرها تظهر الملكة وهى تمارس طقوس العبادة لمجموعة من الآلهة. فهنا تعطي قرابين محترقة لآمون وإيزيس، وهناك تضع إناءين مليئين باللبن لإيزيس وحتحور: وفي جدارية ثالثة ترفع ذراعيها تحية لمومياء أوزيريس، وفي أخرى رابعة تركع أمام زوجها ـ أي نفرتاري ـ المقدسة التي تتمثل في هيئة طائر له رأس الملكة، يقف بين أسدين يمثلان الماضي والمستقبل. ومن تلك التصاوير يخرج لنا ضوء شفيف، نور عميق في رقته، يبدو أن المقصود منه أن يغوي المشاهد ليسلم روحه إلى حال من الإجلال والتبجيل أمام تلك الغوامض المقدسة. فأيا كان نصيبنا من الإيمان أو التشكك، هنا شيء يتجاوز الفهم، ويلهمنا شعورًا بسيطًا لا علاقة له بالفكر هو حالة من الانتباه الخالص.

تلك المقابر الصخرية كانت الأهرامات الجديدة، على الأقل فيما يخص الأسر المالكة القدسية، ونتيجة لهذا، لم يبق أحد يبني هرمًا لنفسه إلا الخدم. فمع إلغاء الاحتكار الملكي للشكل الهرمي، نبتت أهرامات صغيرة منزلية النطاق بطول البلاد وعرضها من سقارة شمالاً لبلاد النوبة جنوبًا، وكان أكثف تركيز لها في "دير المدينة" حيث كان يعيش الصناع والموظفون العاملون في بناء المقابر الملكية والعناية بها. ولقد صنعوا لأنفسهم فوق التل المشرف على القرية مقابرهم الخاصة المتواضعة من الطوب اللبن على



حورس يصاحب الملكة في عبورها
للعالم السفلي.

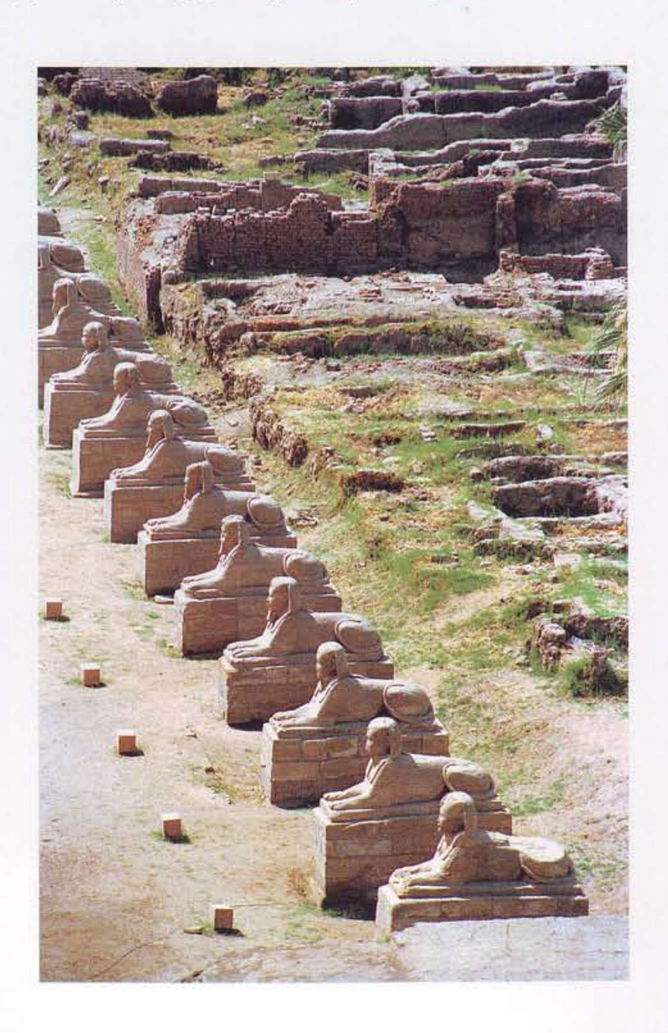


نمط واحد، كما لو كانت هناك هيئة تخطيط معماري تصدر مراسيم دقيقة بالمسموح والممنوع. فكل المقابر هناك لها فناء يفضي لمعبد صغير يقوم فوقه هرم أصغر من قامة رجل، يسكنه تمثال للمتوفي قائم في مشكاة في الخلفية. ويدفن كل جثمان في مسقط عمودي محفور تحت الفناء، وعادة ما كانت حجرات الدفن غنية بنقوشها.

وهكذا فإن للأقصر أيضًا أهراماتها، ولو على نطاق أضيق: كما أن لها أبا هول منمنم. فاليوم حين نزور معبد آمون بالكرنك نصل من ناحية الغرب عبر ممر يقوم على جانبيه صفان من السباع الرابضة لها رءوس كباش وترمز للإله آمون. وكل منها يحتضن بين براثنه تمثالاً لرمسيس الثاني كناية عن أن آمون يحفظه ويحميه، وكان يسبق ممر الكباش في الأصل صفان أقصر قليلاً من كائنات أبي الهول ذوي الرءوس البشرية لكن للأسف لم يعد لها أثر.

ولقد حكمت نفرتاري مع رمسيس فيما يمكننا تسميته من نواحي كثيرة أوج المملكة الحديثة. وقد انعكس علو زوجها سياسياً وعسكرياً في صورة اهتمام سخي برضاء الإله الذي جعل هذا العلو قابلاً للتحقيق، وإذا كانت مقامات ومزارات آمون بالأقصر والكرنك قد سبقت رمسيس بكثير، إلا أنها لم تبلغ شكلها النهائي ذا الجلال إلا في عهده.

ولا يمثل عنصر وحيد هذا البهاء خير تمثيل إلا بهو الأعمدة بالكرنك. لقد بدأ كممر بسيط لا يحفه أكثر من ١٤ عمودًا عاريًا من النقوش، وأضاف إليه كل من سيتي الأول ورمسيس الثاني حتى بلغ عدد أعمدته ١٣٦ عمودًا عظيمًا عليها نقوش كسجلات البردي، ولها سقف اختفى من زمن بعيد.



(إلى اليسار) توت ، إله الحكمة أحد الآلهة العديدة التي كانت تجلها نفرتاري.

(أسفل) تماثيل أبى الهول الصغيرة تصنع معاً طريقاً يفضي من معبد الأقصر إلى معبد الكرنك.





الصفحات السابقة: بهو الأعمدة العظيم - أحد التجارب المعمارية العظيمة في العالم.

(إلى اليمين) مهارة نحاتي الحجارة في الأقصر دائماً ما تذهل الزائرين.

ولكن صوب المركز مازالت هناك مساحة صغيرة من عوارض الأعمدة والنوافذ المطلة على السماء تعطي فكرة عن التصميم الأصلي الذي نفذه مَنْ بنوه. فمعظم المساحة كانت في الأصل يغمرها الظل. ومع الظلمة تعطي أشكال النباتات المنقوشة في الأعمدة جوًا يشبه المستنقع الأول الذي كان الاعتقاد أنه مسرح بدء الخليقة، إلا أن المستنقع الآن اكتسحه الضوء، ولكن مازال لدينا وفرة من الأسباب لكي نتوقف ونتعجب. إن بهو الأعمدة واحد من أعظم الإنجازات المعمارية في التاريخ. فهو يغطي ٦٠٠٠ متر مربع ـ وهى مساحة كبيرة بما يكفي لاستضافة كاتدرائية سانت بيتر في روما وكاتدرائية سانت بول في لندن معًا. إلا أن المقارنة ليست مجرد ما يخص النطاق. فكعمل من إبداع الخيال، يتمتع البهو بنفس الدرجة من العظمة الفائقة، والأسوار منقوشة بمشاهد حربية تصور انتصارات سيتي الأول ورمسيس الثاني، بينما تظهر على الجدران في الداخل نقوش صغيرة لتفاصيل من المواكب الدينية، كثير منها يشير إلى مهرجان "أوبت" السنوي، حيث يعبر آمون في قاربه النيل من الكرنك للأقصر ـ وهى رحلة صارت تستغرق مع حلول زمن الأسرة العشرين ٢٧ يومًا. وفي حين أن الأسوار تحوي صور الموت والدمار، يمتلئ البهو من الداخل برموز الخلق ـ ويحتل الصدارة الأعمدة ذاتها. إن الصور الندية في بهو الأعمدة تتناقض بشدة مع الصحراء العطشى خارجه، وكثيرًا ما تبدو مصر عالمًا من الصخر والتراب. وهذا صحيح بالذات في الضفة الغربية للنيل، لأنها مازالت مركز صناعة المرمر، وهى إحدى الصناعات القديمة التي تتميز بها مصر.

ومحاجر المرمر بدأت في مصر منذ عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد. ورغم أن الحجر الخام ـ وهو نوع من الجص ـ موجود في العالم كله من إنجلترا للهند، فإن مرمر الضفة الغربية للأقصر يتفرد بأطياف اللون الكثيرة فيه. نتيجة لصبغه عبر أزمان چيولوچية المدى بواسطة محاليل معدنية مغسولة في قرار بحر ما قبل التاريخ. والمرمر ـ الذي يبلغ من الطراوة أنه من الممكن أن يخدشه الظفر ـ من الأحجار التي سعى الناس دائمًا خلفها لخواصه السحرية الشفيفة. وقبل أن يصبح صرعة بين مصممي أباچورات الفن الحديث، كان المرمر مادة مصطفاة من الفراعنة ورعيتهم.

ولقد توارث فن تصنيع المرمر في الأقصر أجيال عن أجيال على مدى آلاف السنين. إنه تقليد حي لم ينقطع. وحين تشاهد رجلاً يصنع تمثالاً من المرمر ببضع ضربات من مطرقته على الصخرة العارية تدرك كم من أسرار الصنعة عبر الزمن منقوش في عضلاته، واليوم لا فراعنة يحكمون طيبة، بل مديرو فنادق، لكن الحرفيين في الجرنة ودراع أبى النجا هم الورثة الحقيقيون لأولئك الرجال الذين حضروا إلى هنا ليبنوا مقابر الملوك وملكاتهم.



الصقر. والربابة

إن إدفو، الواقعة على مسافة حوالي ١٠٠ كيلو متر جنوبًا من الأقصر، عاشت طويلاً محلاً لسكنى الإنسان، وذلك بفضل موقعها الممتاز على أرض ترتفع عن معظم سهل النيل الفيضي، وتعود الاكتشافات الأثرية هنا للأسرة الثالثة، والسكان المحليون يزعمون أن أول معبد بني هنا صممه إمحتب، المهندس المعماري لهرم زوسر المدرج في سقارة. ورغم أنه لم يبق شيء من ذلك البناء فإننا نعلم أنه كان منذورًا لحورس.

وحورس هو ابن أوزيريس الذي قدر له أن ينتقم لأبيه ويخلع ست المغتصب عن العرش. وطبقًا للأسطورة، كانت إدفو هى مسرح أحداث المعركة الكبري التي انتهت بانتصار حورس على ست. لقد أتى حورس من الجنوب في صحبة رع إله الشمس بحثًا عن قاتل أبيه، ولعلمه بخبث ست، ذهب حورس لزيارة توت إله السحر والمكر ليطلب منه العون. وحول توت حورس لقرص شمس مجنح. وحين اقترب جيش ست من رع وحلفائه، حلق حورس في السماء وأزاغت الأشعة الحادة التي أرسلها عيون الأعداء بينما اندفع جيش رع مهاجمًا لهم.

لكن النصر لم يكن سهلاً. فطبقًا لبعض المصادر استغرقت المعركة ثمانين عامًا، وفي أثنائها، اقتلع ست عينًا لحورس، بينما فقد هو خصيتيه وإحدى ساقيه. وفي النهاية انعقدت محكمة إلهية للنظر في النزاع، وكان الحكم بانتصار حورس الذي صار ملكًا لمصر. أما ست فبدلاً من عقابه تقرر أن يعتزل ويرضي بالعيش في كنف رع في السماء الشمالية؛ حيث يقوم بدور صوت الرعد. إلا أن حورس، في أساطير أخرى، يعتبر إلهًا وغير مخلوق، حيث إنه حضر لحظة خلق العالم نفسها. ففي واحدة من تلك الأساطير، بعد ظهور الكوم البدائي بانحسار الماء عنه، يقوم كائنان غير محددين بالتقاط عصا كانت تطفو على الماء ويكسرانها نصفين ويغرسان أحدهما في الأرض التي ظهرت لتوها. وعلى الفور يظهر حورس في هيئة صقر ويحط على العصا. وفي تلك اللحظة، يفيض ضوء غامر منيرًا الهيولي غير المخلقة، ويبدأ العالم.

ومع انحسار الماء أكثر فأكثر يحتاج الصقر إلى مأوى، وهكذا يقام أول بيت له من أعواد الغاب، وباتساع الأرض ببطء شاغلة حيزًا متزايدًا، تم توسيع بيت حورس بإضافة حجرات أخرى له، حتى صار في النهاية صرحًا عظيمًا ـ النمط الأولي للمعبد، الذي ستحتذيه بعد ذلك كل المعابد في مصر في أسلوب بنائها.

الفصل التاسع

وقد استغرق بناء المعبد العظيم الذي نراه الآن في إدفو مائة وثمانين عامًا. عملية البناء نفسها تمت بين عامي ٢٣٧ و١٤٢ قبل الميلاد. وفي ذلك الوقت كان البطالمة يحكمون مصر ـ وهم أحفاد بطليموس الأول سابقًا أحد قواد جيش الإسكندر الأكبر، الذي انتزع مصر من يد الفرس عام ٣٣٢ق. م. ولقد تطلب الأمر سلسلة من الحكام البطالمة ـ أى التراكم الزمني لعهود ستة منهم ـ لكي يكتمل البناء في ذلك المعبد غير العادى، الذي فيه كان حورس يعبد باسم "الصقر حورس بيحدتي" (Behedti). وفي المبنى أصداء كثيرة لقصة الخلق. فالعمدان منقوشة عند قواعدها بنباتات المستنقعات وذلك للإيحاء بالأصول المائية للعالم، بينما الأعمدة نفسها تمثل أعواد الغاب التي بنى بها أول مأوى لحورس. وترتفع أرض المعبد مع توغلنا فيه من ناحية البوابة، وذلك لتمثيل الأرض ذات الانحدار الدائرى التي كان عليها الكوم البدائى.

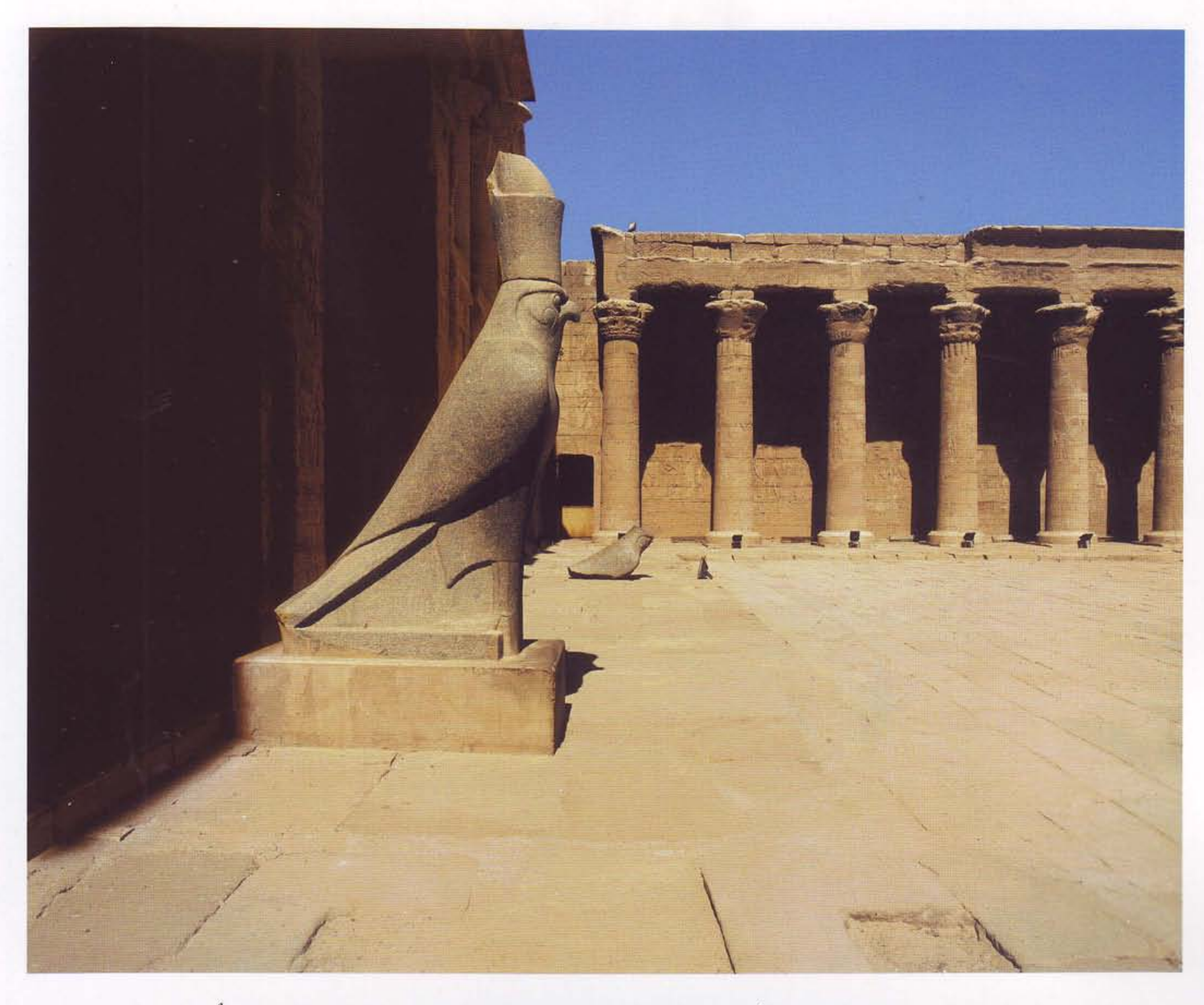


الضخامة الهائلة للبوابة يشعر إزاءها الزائر المعاصر بنفس الضآلة التي كان يشعر بها زائرها القديم.

وكان مفهوم المصريين لمعابدهم أنها بيت الإله بكل ما يحمل ذلك من معنى، وهكذا فإن بهو القرابين مزخرف بنقوش بارزة تصور أطعمة ووجبات، وهو المعادل المقدس لحجرة السفرة، بينما الحرم الداخلى هو حجرة نوم حورس. فهناك يقضي الإله ليلته مع عروسه حتحور، إلهة الخصب، وذلك أثناء احتفالات "لم الشمل الجميل" التي كانت تُقام كل صيف لمدة أسبوعين.

"هنا كل أنواع الخبز والأرغفة كثيرة كحبات القمح، والثيران كالجراد في العدد، ورائحة شواء الطير والغزلان والبقر الوحشي والوعول مفحفحة حتى أعالى السماء، ويجرى النبيذ طليقًا كالنيل في كل أنحاء البلدة، وفيضانه يفور من الناحيتين. والمر المنثور مع البخور في المبخرة تستطيع أن تشمه من على بعد ميل، والمدينة مفروشة بالخزف المزخرف، متلألئة بمعدن النطرون، ومطوقة بالزهور والعشب الطرى. شبابها سكران، ومواطنوها مسرورون، وبناتها تسر العين، والفرح في كل مكان، والاحتفال في كل حى. ولا نوم إلا بعد الفجر".

إن هذا الوصف، المأخوذ عن نص محفور في الباحة الخارجية للمعبد، وتدعي باحة القربان، يرسم لوحة مرحة بل معربدة للمهرجان، وكان تمثال حتحور ينقل بالمركب من دندرة، في موكب يتزايد حشده أثناء الرحلة، مجتذبًا حجاجًا من أهل القرى التي كان يتوقف بها ليأخذ أول قطاف البساتين و الحقول. وحين يصل إلى إدفو، تتحول الطقوس إلى عرس حقيقى، حيث يوضع التمثالان في الحرم المقدس



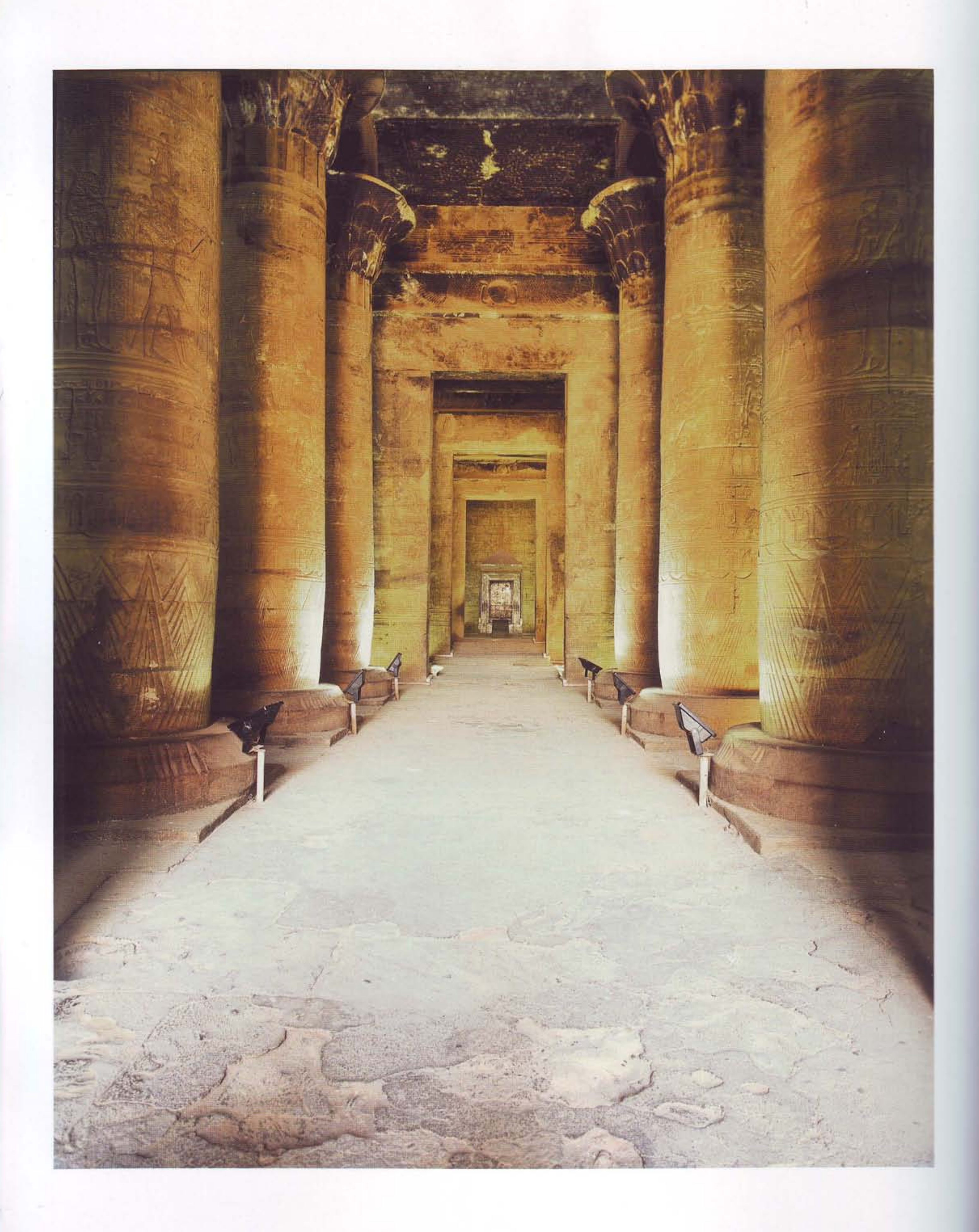
على جانبي مدخل بهو الأعمدة يقوم تمثالان لحورس: أولهما ينتصب أعلى من قامة الرجل ، والآخر منطرح على الأرض ، مبتور الساقين.

في الاتجاه المقابل : بهو الاحتفالات . يطل على المذبح المقدس : هذا واحد من أقدم أجزاء المعبد ، الذي بناه بطليموس الثالث.

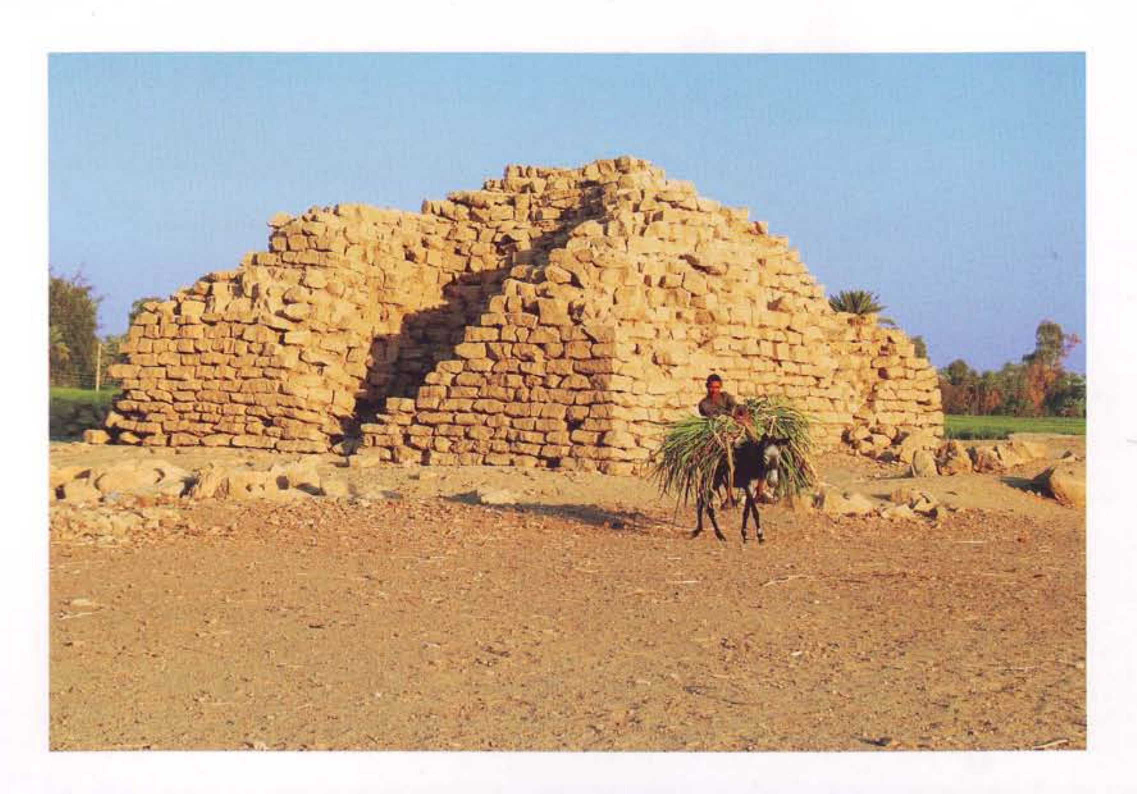
ليقضيا الليلة معاً في خلوة تامة. و اليوم التالي يبدأ مهرجان الحصاد، حيث تُقدم النذور للأسلاف المقدسين، أبناء رع، الذين استقروا هنا وأسسوا المدينة، وأنجبوا فيها تسعة عمالقة يزعمون أن أهل مصر انحدروا من صلبهم. و بعد ذلك بثلاثة أيام، كان تمثال حتحور يستقل المركب ثانية عائداً إلى دندرة لتضع الطفل الذي وضع حورس بذرته فيها ليلة عرسهما .

وجدران معبد حورس تغطيها نقوش بارزة فائقة الحسن تصور كل هذا إلى جانب احتفالات أخرى. ومن هذه الاحتفالات التي تصورها مهرجانات النصر - التي تحوى عدة مسرحيات رمزية تعيد أحداث انتصار حورس على ست - وتجد مشاهدها منقوشة على الجدار الغربى للممشى المسقوف، وفيها يتخذ ست شكل فرس نهر يربض تحت مركب أخيه. وفي نهاية المسرحية، يمارس الكهنة طقس التهام كعكة على شكل فرس النهر، ليضمنوا بهذا أن ست انهزم إلى الأبد .

أما مهرجان التتويج فكان احتفالا بمُلك حورس. فكان يتم تتويج صقر فعلى في الباحة المركزية للمعبد، وذلك قبل حبسه في حجرة داخلية ليحكم لمدة سنة في ظلمة تامة. ولابد أن هذه المراسم كان لها تأثير خاص في الشعب المصرى، الذي اعتبر البطالمة غزاة غرباء غاصبين، وكما أنهم كانوا لاشك







(أعلى إلى اليمين) هرم كولة مصنوع من كتل من الحجر الجيري تلتصق ببعضها بصنعة رديئة بواسطة الطين والرمل.

إلى اليسار : بهو الأعمدة العظيم، الذي بناه بطليموس السابع.

يتذكرون المعابد التي قامت في نفس ذلك الموقع قبل هذا القائم الآن، كان الصقر يمثل لهم حلقة الوصل بينهم و بين سلالتهم الملكية الوطنية، و بشيراً باليوم الموعود حين يعطى الصقر تاجه لحاكم مصرى قح، لا دخيل إغريقى. و لكن، يا للخسارة، لم يكن موعوداً لذلك اليوم أن يأتى. فعالم الفراعنة قد ذهب بلا رجعة.

لكن معبد إدفو، الذي بناه أحفاد جاءوا بعدهم، يحتذى بولاء كل الملامح العامة للمعابد المصرية التي سبقت، من حيث التصميم و من حيث النقوش و الزخارف. إنه المعبد الوحيد في مصر الذي بقى كما هو دون تخريب الزمن؛ ولهذا حين نمشى بين أرجائه الفخمة، و نفحص تلك النقوش البارزة الفاتنة التي تغطى جدرانه، فإن تلك الهيبة التي يبعثها فينا ربما كانت تأخذنا قريباً من إيمان المصريين الحق، تماماً كما تفعل أطلال الأقصر الرومانسية، أو تلك الألغاز التي لا سبيل لاختراقها عند الأهرامات.

ولا يوجد بإدفو شيء يضارع معبد حورس. و بالتأكيد ينطبق هذا على الهرمين الصغيرين بالقرب منه، واللذان ينسبان للفرعون "حونى" من الأسرة الثالثة. يُقام أحدهما عند "نجع الغنيمة"، و يبعد عن إدفو بمقدار ٥ كيلومترات على الضفة الغربية للنيل، بينما يقع الآخر، و يدعى هرم "الكولا"، على بعد ١٥ كيلومتراً شمالا. و هرم الكولا من أكثر أهرامات جنوب مصر الصغيرة مقاومة لتخريب الزمن: فحين اكتشف في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كان ارتفاعه ١٢ متراً، أى أنه لم يفقد إلا مترين من ارتفاعه الأصلى. و ما زالت وظيفة تلك الأبنية تحير علماء المصريات، حيث لم تكن مقابر بدليل أنها لم تكن تحوى جثمان المتوفي. إلا أن أحدهم يطرح فرضية أنها ربما كانت لها صلة بأسطورة حورس و ست. وهذا تأويل مغر – خاصة بالنسبة لواحد انتهى لتوه من زيارة معبد حورس في إدفو، و ما زال يشعر بحضور الإله و هو "يبحر" نازلا في الوادى في اتجاه الشمال.

وكما تحكى لنا السطور المحفورة في جدران المعبد، لم يكن أحد ينام في إدفو طوال أيام مهرجان "لم الشمل الجميل". أما الأجيال التالية فيبدو أنها قررت تعويض الحرمان من النوم الذي عانى منه أسلافهم بل ربما كان السر في الطقس الحار بما يفوق الاحتمال و يدعو للخمول في ذلك

الركن الجنوبى من مصر و لمدة تبلغ ثمانية أشهر. على كل حال، من المناظر المألوفة هنا للزائر الصاعد جنوباً من المنيا تلك الأجسام الراقدة لرجال طوال القامة في جلاليبهم الطويلة مستلقين خارج دورهم على "الدكة" الشائعة في تلك المنطقة، و يتمتعون بنومة قيلولة تحسدهم عليها الشعوب الأخرى التي تقدس الراحة. ففي صعيد مصر شهية النوم وموهبته لا تعرف الحدود .

إلا أن الراحة أصبحت لكثير من "الصعايدة" شيء ينتمى للماضى. فبرغم أن المدن و القرى مازالت تبدو من نواح كثيرة و كأن لم يتغير فيها شيء، إلا أن طرائق عيشتهم مزقتها عوامل النحت و التعرية الاجتماعية والاقتصادية للريف التي تنهشه ببطء و ثبات، بحيث صار عليهم أن يسافروا وراء لقمة العيش. و حتى الباقين لم يعودوا يجدون الوقت أو الرغبة للتمدد على الدكة خارج دورهم أو الجلوس في ليالى الصيف ليستمعوا للشاعر الذي تحكى ربابته السيرة الهلالية، الملحمة العظمى لصعيد مصر، التي تسرد وقائع هجرة بنى هلال من شبه جزيرة العرب لتونس، و التي وصفتها اليونسكو عام ٢٠٠٣ بأنها من الدرر الخالدة للتراث الثقافي الشفاهي للإنسانية.

و قد كرس عبد الرحمن الأبنودي، الشاعر المصرى المعاصر الكبير، عشرين عاماً من حياته لتدوين السيرة الهلالية قبل أن تضيع للأبد. و قد كتب ببلاغة عن قدر أولئك الرجال الذين انتزعهم شظف العيش من قراهم و دفعهم قسرًا للبحث عن عمل في بيئة غريبة عنهم و كثيراً ما تكون ضدهم. و ديوانه "جوابات حراجى القط" يتكون من خطابات من صنع خياله يرسلها لزوجته رجل تجبره الظروف على ترك بلدة من المؤكد أنها تشبه إدفو لكى يعمل لقاء أجر زهيد في مشروع السد العالى، و تسجل كلماته مأزق الكثيرين من أبناء مصر المعاصرة، و هى بطريقتها الخاصة لها نفس بلاغة السيرة الهلالية:

فين شغل حراجى القط
الشغال من سنتين في السد
يعنى اللى ياجى يقوللى
فرجنى ع اللى عملته يا حراجى
كيف ح انطق و أرد؟





سيد الضو (الواقف) سيد شعراء السيرة ، يتبادل الأشعار مع الشاعر المعاصر الكبير عبد الرحمن الأبنودي.

فين الميت ميت خبطة فاس
راح اشاور على دول كيف و ح أقول
أنا عامل ده.
فين الميت ميت زنبيل التيل التقلانه
اللى ناقلهم على كتافاتى
مش باقى منهم غير العوجة اللى ف كتفى.
يتحسبوا كيف دولم يا ولاد ...
يعنى اللى يقوللى فين شغلك يا حراجى
أشاور له على كتفى...؟
المواسير و الصواميل اللى طلعت عينى فيهم
حاعرفهم كيف
من بين صواميل الناس التانيين
عندك كانت الشغلة في الجبلاية بعد ما تخلص
معروفة.
نمشى و نقول
والله كبر قمحك يا شاهين..
زارعه بايدى يا رجاله و راويه.
بابقى عارف..
في اليوم الواحد ده
عامل بالضبط الشغلانه دى
إنما في الغول الواقف قدامى ده
ما حدش عارف اللى عمله ده
م اللى عمله ده
بيسف ف جوفه اليوم و لا يشبعش
مش يومى أنا لوحدى
يوم الألوفات دى .. يوم الألوفات



ملحمة بني هلال مازالت تأسر
ألباب أهل الجنوب ، بصرف النظر
عن عدد مرات استماعهم لها من
قبل.

المعبد القائم في آخر العالم

يقوم معبد فيلة على جزيرة – ولكن لم يعد قائماً على جزيرة فيلة ذاتها. فحين بنى السد العالى في ستينيات القرن الماضى بفضل جهود رجال مثل حراجى القط، ارتفع منسوب المياه خلف خزان أسوان، و كاد المركز القديم لعبادة إيزيس أن يغوص تحت الماء.

و لا يعنى هذا أن المشاكل بدأت في ذلك الوقت: فالخزان القديم كان قد أوصل منسوب الماء إلى مفصل قدم المعبد. فحين بنى خزان أسوان ما بين عامى ١٨٩٨ و ١٩٠٢ كون خلفه بحيرة طولها حوالى ١٥٠ كيلو متراً، و قد أدت الاحتجاجات من عدة جهات ذات نفوذ إلى إجبار السلطات البريطانية التي كانت تحكم مصر في ذلك العهد أن توقف العمل في المشروع قبل أن يبلغ منسوب المياه أعلى مستوى، و ذلك للحفاظ على المعبد المقدس. و قد علق ونستون تشرشل على هذا التنازل بتشككه الساخر المعتاد: "إن تقديم ١٥٠ مليون قدم مكعب من الماء قرباناً لحتحور من حكماء الغرب لهو أكثر الأضاحى في التاريخ قسوة و شراً و غفلة، فعلى الدولة أن تعانى، و يتضور الشعب جوعاً، و ذلك لكى يسعد الأساتذة و يجد السياح شيئاً يحفرون عليه أسماءهم".

و في النهاية تغلب رأى تشرشل، و ارتفع منسوب المياه. و أصبح معبد إيزيس، الذي كان يقوم يوماً ما آمناً فوق شلال النيل الأول، صار يفيض عليه الماء كل عام من ديسمبر إلى مارس، و لا يستطيع حينها أحد زيارته إلا في قارب بمجاديف عبر كشك تراجان حتى باحته المركزية، لكن ذلك التأثير لم يكن سلبياً من كل النواحى، حيث حمى أحجار المعبد من نحت و تعرية رمال الصحراء.

إلا أن السد العالى كان شيئاً آخر تماماً. و حين ظهر جلياً أن الجزيرة تتعرض لخطر الغرق تصاعد نداء دولى بإنقاذها مع آثار أخرى لا تقدر بثمن من الموت غرقاً، و بمساعدة اليونسكو بدأت أخيراً مهمة إنقاذه و لكن ليس قبل أن يبدأ الماء لعق أقدام إيزيس. و تم فك معبدها بجهود شاقة و مخلصة، ثم أعيد تجميعه على جزيرة "أجيليكا"، على بعد ٥٠٠ متر من مأواه القديم – و هى مهمة اشتملت على نقل ٤٠ ألف مقطع حجرى تزن ٢٠ ألف طن.

لقد تم إنقاذ المبنى: إلا أن السياق الطقسى اختفى. ففى العصور القديمة لم يكن هناك أهمية أو حتى وجود لجزيرة فيلة إلا في إطار جيرتها لجزيرة "بيجا" الأكبر منها، و التي كان ينظر لها على أنها منبع النيل، و في نفس الوقت مدفن زوج إيزيس (و أخيها) أوزيريس، بل و الكوم الأول نفسه الذي برز من المياه عند بدء الخليقة. و الذين يميلون لتصديق مثل هذه القصص ربما تطيروا من عودة "بيجا" ثانية تحت الماء الذي جاءت منه...

أما بالنسبة لجزيرة "فيلة" نفسها، فكان في المعتقد أنها المكان الذي عثرت فيه إيزيس على قلب أوزيريس، بعد تمزيق جسده و بعثرته في أركان البلاد الأربعة على يد أخيه "ست": و بلغت "بيجا" من القداسة أنه كان من المحظور أن يطأها إلا الكهنة. و لهذا صارت جزيرة "فيلة" التي تدور في فلكها مركزاً للعبادة لعامة الناس. و بينما اعتقد الكهنة أن جزيرة فيلة تعود قداستها إلى زمن "زوسر"، توحى الأدلة التي ساقها علم الآثار أنها لم تتأسس في الواقع كمقر للعبادات إلا في زمن الأسرة الرابعة والعشرين – أو ما يسمى بعصر "سيت" الذي كان بمثابة "حلاوة الروح" للمجتمع الفرعونى الذي يحتضر.

والعصر الذهبى الفعلى لهذه الجزيرة كان في زمن البطالمة، وبلغ ذروته تحت الحكم الرومانى. فكلتا الطائفتين من الحاكمين الغرباء حاولوا أن يتوحدوا في عيون الناس مع مذهب عبادة إيزيس و ذلك لتأكيد شرعيتهم، و أغدقوا من الهبات المالية على تلك المعابد مبالغ طائلة لكى يثبتوا أنهم عباد مخلصون.

هشم المسيحيون الأوائل الأوثان على الجانب الأيسر من البوابة الأولى، خشية أن يهاجموا قلوبهم، لكنهم تركوا أوثان الجانب الأيمن كما هي.

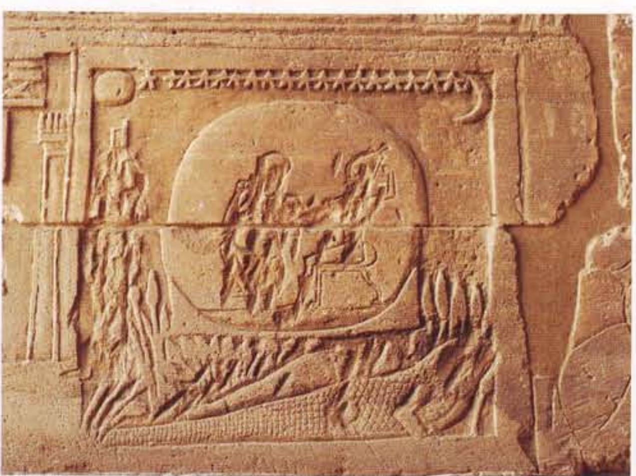
و لكن بعكس ما حدث في إدفو، حيث بنى البطالمة نسخة من معبد فرعونى حقيقى مراعين في ذلك حتى أصغر التفاصيل ... اخترع البناءون الذين عملوا في جزيرة فيلة على مدى ٨٠٠ عام شيئا أصيلا وفريدا ومزيجا فائق الروعة من التقاليد المعمارية المصرية و الإغريقية-الرومانية. و نتيجة لهذا، حتى بعد نقلها إلى موقع هو طقوسيًا فارغ من المعنى، ما زال ذلك المزيج من أكثر المواقع فتنة في بلد لا تنقصه على الإطلاق مواضع الفتنة.

و"فيلة" ليست معبدًا واحدًا، بل عدة معابد: فبالإضافة إلى ضريح "إيزيس"، هناك أيضا معابد لحتحور، حرندوتس (الذي يجسد بعض صفات حورس) و أرنسنوبيس (صاحبة إيزيس الطيبة). و في الحقيقة هناك أيضا معبد صغير لإمحتب، مهندس "زوسر" المعمارى، الذي صار لاحقًا أول رجل من عامة المصريين يُرفع إلى مقام الآلهة. و يحتوى معبد إيزيس على ضريح مكرس لزوجها أوزيريس و به نقوش جدارية بارزة تصور جهودها لجمع أشلائه المبعثرة. و في القرون التالية أضيفت كنيستان قبطيتان لهذا الخليط الانتقائى، و- في زمن أحدث- مطعم صغير في الهواء الطلق للسياح.

و المعبد الرئيسى في فيلة نما بشكل عشوائى عبر القرون التالية، و ذلك الحس التلقائى في تنظيم الأبنية يضيف إلى سحر الجزيرة لا العكس. و بوابة الهيكل الهائلة نفسها هى أثر لأجيال لا حصر لها من توافق و تداخل و اختلاط المعتقدات بلا حرج، حيث إنها تحمل، إلى جوار تماثيل لإيزيس و حورس و حتحور ينظرون من الأعالى إلى تمثال هائل بحق لبطليموس الثانى عشر، تحمل عددًا كبيرًا من الإضافات اللاحقة، منها صلبان قبطية و نقش كتابى لجنرال من جيش نابليون يدعى ديسيه، و نقشه احتفالا بانتصاره على المماليك عام ١٧٩٩ً.

صليب قبطي ينتمي للمذبح المسيحي بمعبد إيزيس.









(إلى اليسار) : إله النيل ، هابي ، يجعل الماء يتدفق.

(أعلى اليمين) التماسيح تجر جثمان أوزيريس لمدفنه.

(أسفل اليمين) آخر نقش هيروغليفي يسجل نهاية الحضارة المصرية القديمة.

والجو في الداخل وصفته باقتدار تام رحالة بريطانية هى إميليا إدواردز عام ١٨٧٧، في كلمات مازالت لها نبرة الصدق إلى الآن:

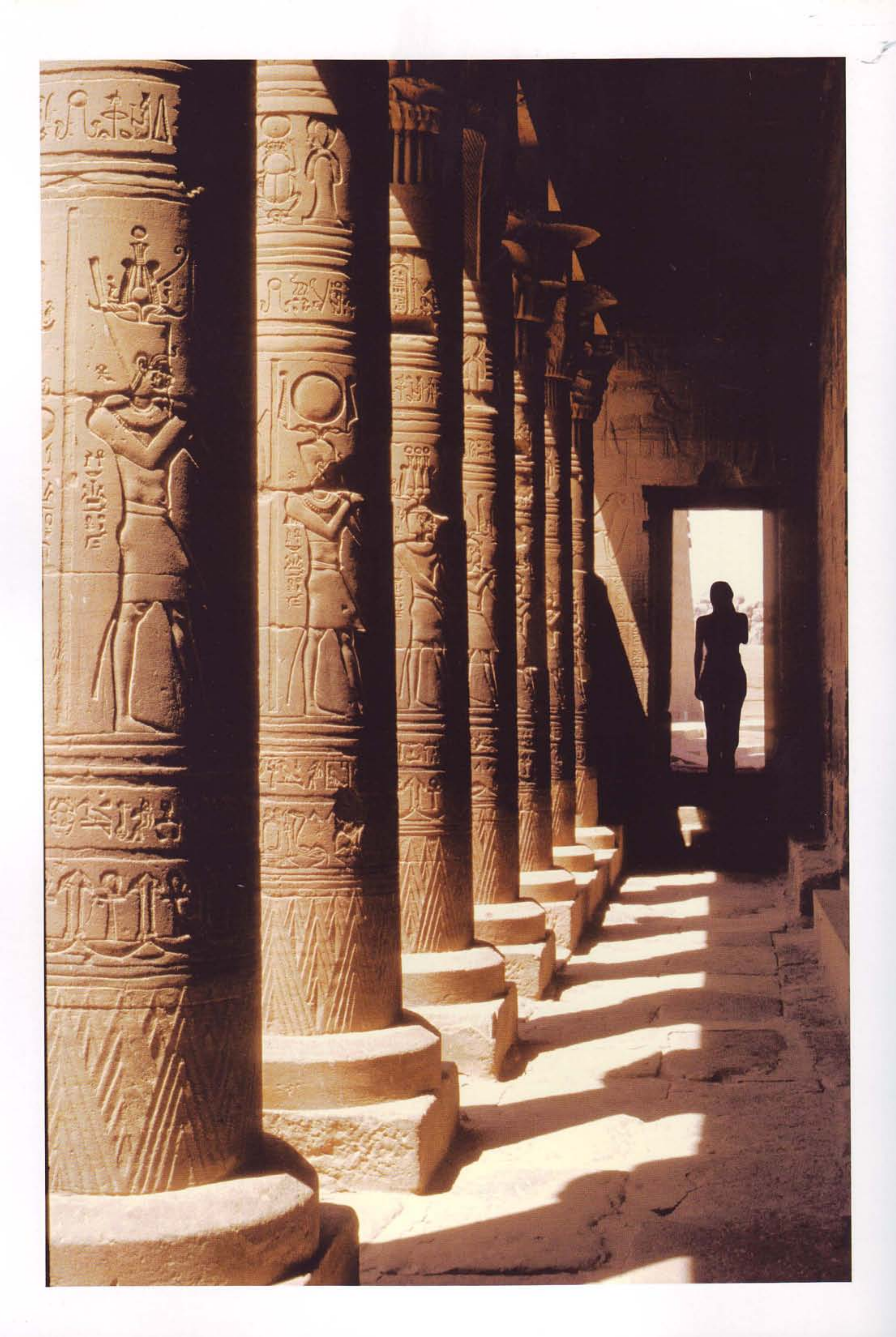
"هنا مكان كأنما توقف فيه الزمن، مثلما حدث في قصر الحواديت الذي نام أهله مائة عام. فالنقوش قليلة البروز على الجدران، و الرسوم المعقدة المتداخلة على السقوف، و ألوان تيجان الأعمدة، مازالت طازجة و تمامًا كما كانت في البدء. تلك التيجان فائقة الروعة هى من قديم الزمان عجيبة زوار مصر ومصدر سعادتهم. و كلها مستوحاة من قوالب طبيعية – من برعم اللوتس و نبات البردى و قامة النخلة. و بمهارة فائقة وفقا للتقاليد المصطلح عليها نُفذت، و في نفس الوقت هى متناسبة بالقدر المضبوط مع ارتفاع قامة العمود و اتساع خصره بما يعطى العمود كله تأثيرًا هو الخفة الخالصة".

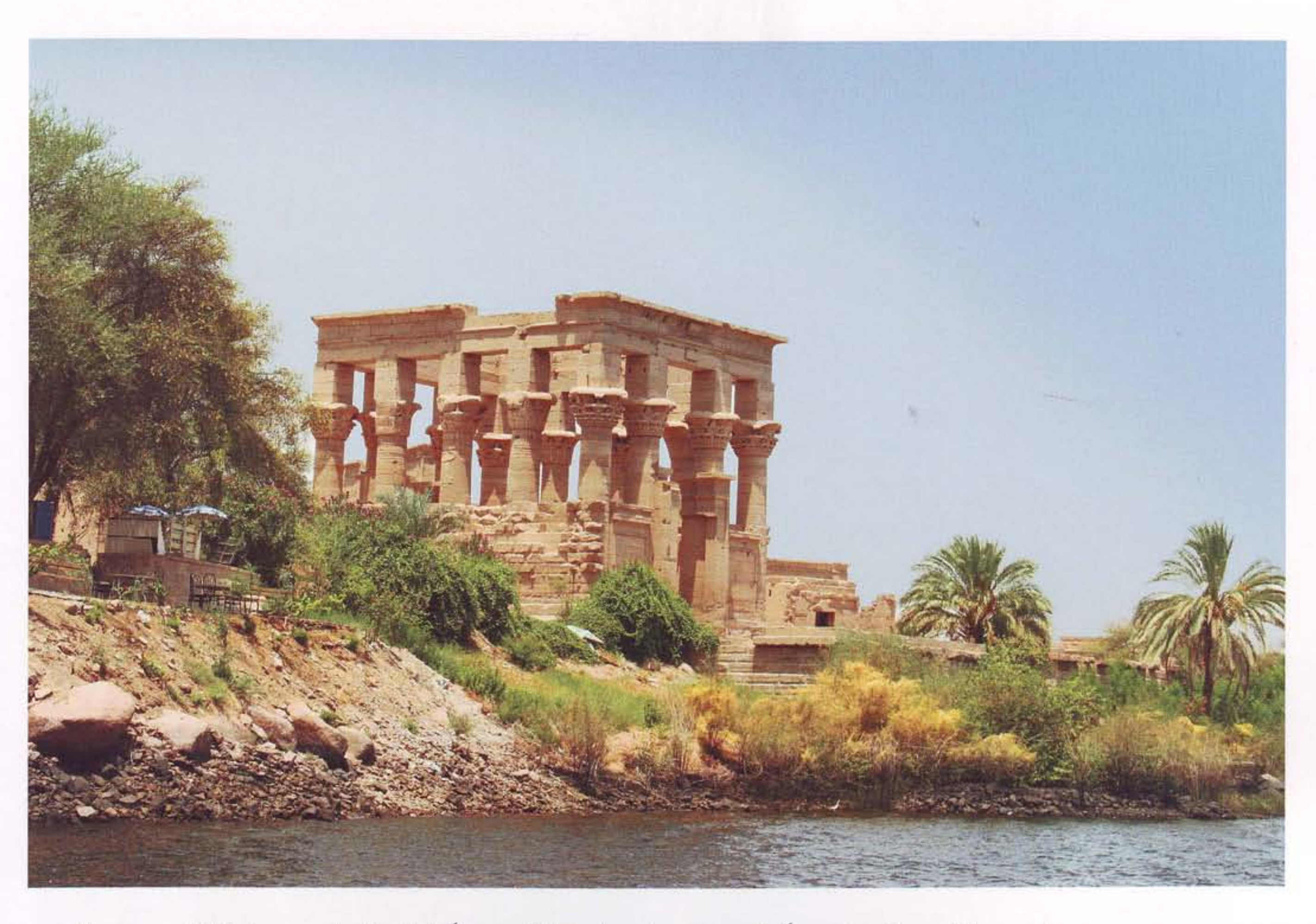
و قبل غرق جزيرة "معبد فيلة" الأصلية، كان صف الأعمدة الغربى في اتجاه المعبد يطل على جزيرة "بيجا"، المركز الحق المقدس لعبادة إيزيس، و المنبع المفترض لنهر النيل.

و في غرب المعبد الرئيسى، هناك كشك صغير بالقرب من بوابة هادريان يصور حابى – التجسيد الإلهى للنيل – و يتدفق منه الفرعان التوءمان للنهر، و ذلك من كهفه الواقع أسفل جزيرة "بيجا" (كان المصريون القدماء يعتقدون أن النيل يجرى شمالا و جنوبًا من منشئه عند الشلال الأول).

و على الحائط المواجه، تشاهد إيزيس تمساحًا يجر جثمان أوزيريس نحو "بيجا" ليتم الدفن. و في الأعلى يمكننا أن نرى تصاوير الأباطرة الرومان هادريان و ماركوس أوريليوس و هما يقدمان القرابين لإيزيس و أوزيريس.

(في الجهة المقابلة) صفوف الأعمدة الرقيقة في معابد فيلة تليق بأجمل المعابد الإغريقية.





كشك تراجان ، ويعرف أيضاً بمرقد الفرعون.

وأكثر من كونها معبدًا لإيزيس، صارت "فيلة" الآن معبدًا لذلك الزواج بين رشاقة النسب في النحت الإغريقى - الرومانى و السلطة الكهنوتية في الطقوس السرية المصرية. إلا أنه بالنسبة لكثير من الزوار فإن نقطة الأوج في زيارتهم هى ذلك الكشك الممتع الذي يكاد يكون سرياليًا و المسمى كشك تراجان. في العصور القديمة، كان ذلك البناء الرشيق على الشاطئ الشرقى هو المدخل الرئيسى للجزيرة. واليوم عادة ما يدعى "فراش الفرعون"، لتشابه عابر بينه و بين السرير رباعى الأعمدة. إن العمودية اللامعقولة للعمدان و تيجانها التي تنطح السماء الزرقاء الخاوية (اختفى السقف الخشبى الذي غطاها في الأصل منذ زمن بعيد)، تلك العمدان تضارع خير ما أنتجته العمارة في تاريخ اليونان و روما. و رغم أنه مكرس لتراجان، فإن كثيرًا من الباحثين اليوم يعتقدون أنه بُنى في زمن يسبق ذلك، ربما في عهد أوجستس.

إن فيلة تقوم حيث تنتهى مصر القديمة. و هو ليس موتًا مفاجئًا وحشيًا، بل تحول ساحر، حيث تذوب ضخامة و صرامة ملوك الصحراء في الإغواء اللطيف للغزاة المهذبين القادمين من الساحل الآخر للمتوسط، تذوب فيها و منها تولد من جديد. لقد كان "فيلة" ذلك المعبد القائم، حيث منبع الدنيا و حيث منبع النيل. و كان آخر مكان في مصر تتلى فيه صلوات العبادات القديمة.

فقد ظلت إيزيس تعبد في هذا المكان، جنبًا لجنب مع المسيح، حتى نهاية القرن السادس الميلادى. وهنا عند بوابة هادريان، أُستخدمت الهيروغليفية للمرة الأخيرة، في كتابة قصيرة منقوشة يعود تاريخها إلى ٢٤ أغسطس عام ٣٩٤ ق.م. وكان كهنة فيلة يزعمون أن نهر النيل ينبع عند أسفل جزيرة "بيجا".

ويدعى منافسوهم كهان الإله خنوم بمعبده القائم في جزيرة الفانتين التي تواجه أسوان شمال الشلال الأول، يدعون نفس الشىء عن جزيرتهم، و طقوسهم أيضاً كانت مرتبطة بشدة بخلق العالم حيث إن خنوم كان الإله الذي ينسب إليه خلق البشر على عجلة الفخار.

ولا يتبقى اليوم من معبد "خنوم" إلا القليل، و كذلك المعابد الأخرى التي أقيمت حول الجزيرة، و تجرى الآن أعمال حفر واسعة النطاق لتبيان حجم و مدى اتساع المدينة الفرعونية التي كانت يومًا تثير الإعجاب سويت الآن بأساساتها و تستخدم كمحاجر للبناءين منذ زمن بعيد. إلا أن الجزيرة تجتذب السياح، لجمالها الفتان، و لاحتوائها على مقياس النيل، الأول من نوعه في التاريخ، و كان يستخدم في قياس مدى ارتفاع النيل أثناء الفيضان من عام لعام.

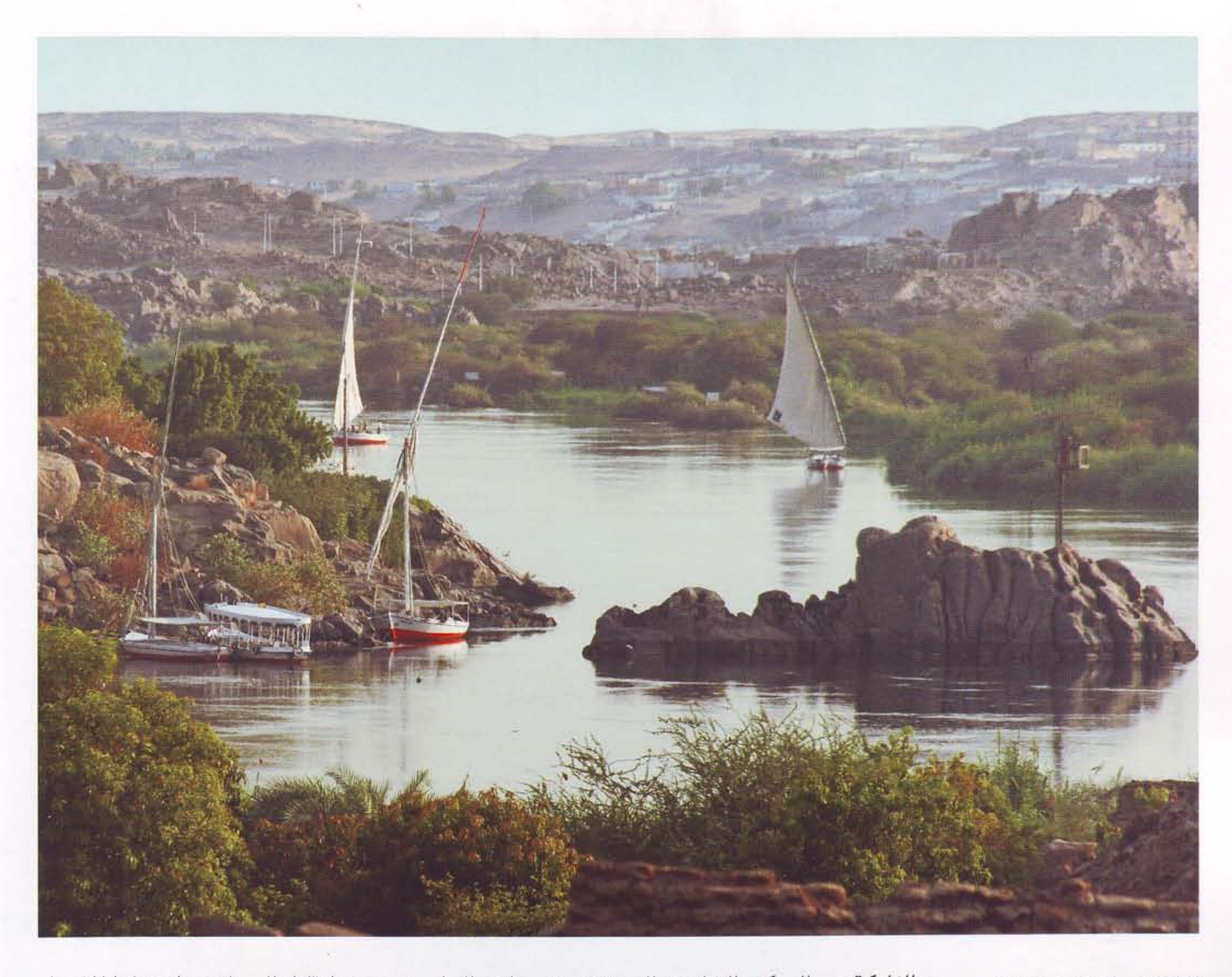
والجزيرة أيضاً هى مهد واحد من أجمل أهرامات مصر الصغرى، ذلك المنسوب هو الآخر للفرعون "حونى". و كلمة "جميل" نسبية في هذا السياق. فيعتقد علماء الآثار أن هذا الهرم المدرج الجرانيتى الصغير ربما كان ملحقًا ذات يوم بقصر ملكى في الجزيرة، حيث يشير لذلك أحد النقوش الكتابية. وككل الأهرامات التي بناها "حونى" في جنوب مصر لم تكن بهذا الهرم غرفة دفن و تظل وظيفته شديدة الغموض.

لا شىء يبقى. حتى أكثر الآثار صلابة و ديمومة يبدو أنها توجد فقط لوهلة قصيرة، كما لو كانت تثبت صدق المقولة بأطلاها الرائعة و لغزها الذي لا سبيل إليه ... إنها تنهار، أو تنحسر عن المعنى: فالأجساد التي يوماً حوتها اختفت، و تبقى الأبنية نصبًا ساخرًا من تصميمها هى على خداع الزمن، و في مكان ما تحلق (با) الفرعون (أى روحه) و تحوم في غبشة الضوء متهكمة على ادعائنا القدرة على مشاركتها الخلود.

و في حين ينهش قلوبنا الغرور الكاذب العنيف لذلك الطموح، يداوينا بلسم تعاشيق الأرابيسك التي تنقشها في الماء فلوكات النيل عند المغيب.

هرم هونى على جزيرة فيلة يكاد ينمحي تماماً تحت البناء اللاحق.





الفلائك تتساب على صفحة النهر في ضوء المساء الواهى.

والفلوكة هى المركب التقليدى المستخدم في وادى النيل. و جسمها قليل السمك مما يؤهلها للإبحار خلال المناطق الضحلة في النهر دون أن تصاب، و يسهل عمل المجاديف حين تتحرك عكس التيار واتجاه الريح. إلا أنها في العادة تسافر نحو الجنوب مع النهر، و شمالا مع الريح. و مع أنها يمكن رؤيتها في أية نقطة في النهر، تظل أسوان هى عاصمتها، فهناك ٥٠٠ فلوكة راسية هناك. و ملاحو الفلائك لا يتلقون فن الملاحة في مدرسة، إنما يتوارث الصنعة الابن عن أبيه. و الشراع مثلث الشكل، و يتصل بالصارى على مسافة ياردة بزاوية مقدارها ٤٥ درجة، و يغطى المركب من مقدمته إلى آخره. و هذا التصميم اخترعه العرب منذ ما يزيد عن ألفى عام، حين كانت الشعوب الأخرى مازالت تستعمل الشراع المربع، الذي لا يستطيع الإبحار إلا و الريح خلفه. كما أن الشراع المثلث لديه قدرة على المناورة تزيد عن المربع بمراحل، مما يسمح للمركب لأن تغير وجهتها بزوايا زجزاجية. و لم يستخدم الأوروبيون والذين دائماً ما يتسمون بالبطء في تمييز ما هو جيد – الشراع المثلث إلا في أواخر العصور الوسطى. سرب عريض من الطيور البيضاء الصامتة، هكذا تبدو "الفلائك" الراسية قرب الضفة بين أسوان والفانتين كل مساء، بأشرعتها البيضاء التي تختلج لأرق نسمة ... تبدو سربًا من الطيور البيضاء التي تختلج لأرق نسمة... تبدو سربًا من الطيور البيضاء المحمومة التي تتوقف برهة في رحلتها الشتوية نحو الجنوب. فإذا كانت الأهرامات قد بنيت سكنًا لـ "كا " الفرعون، أو روح الحياة الثمينة إلا أنها شديدة

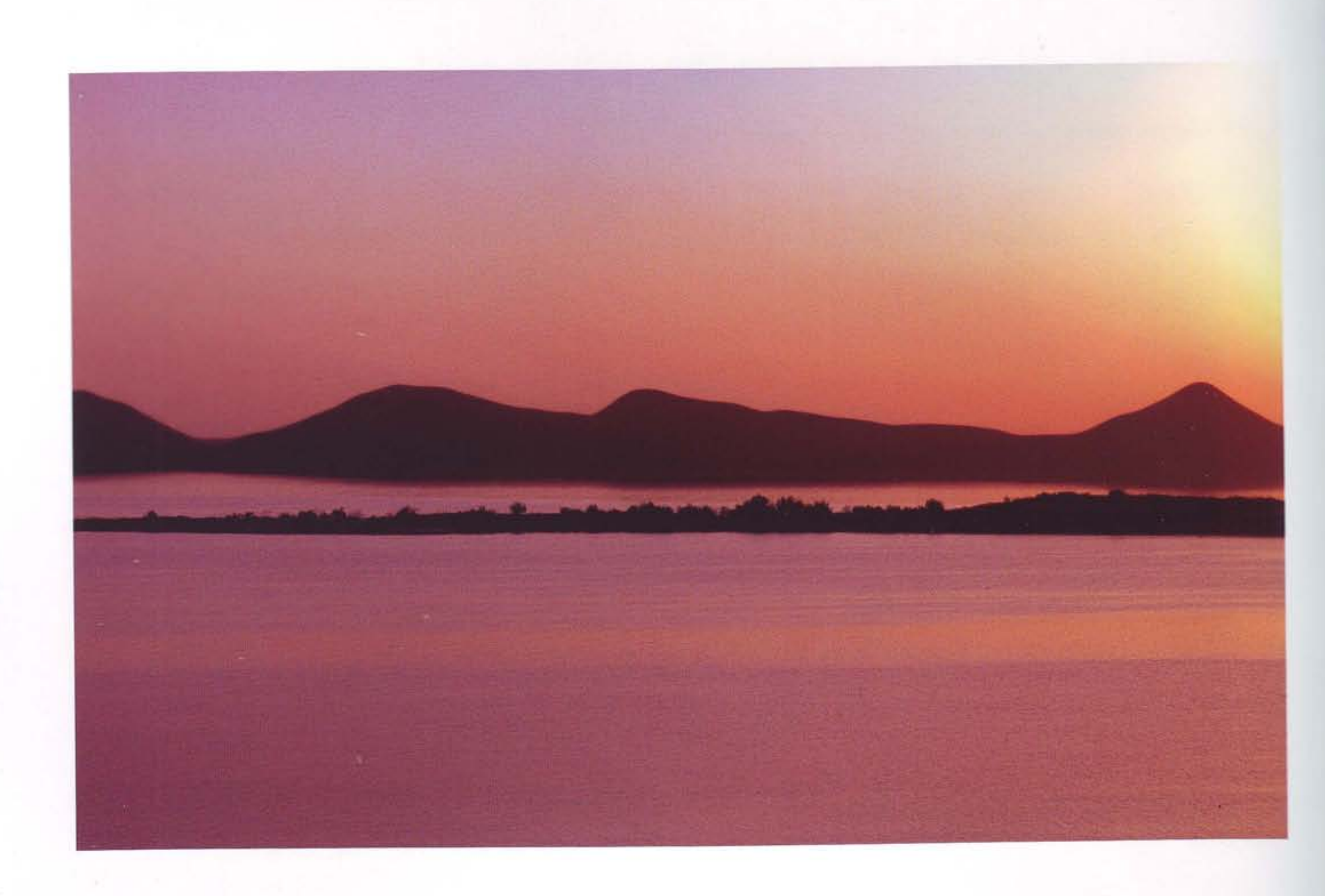
الغروب على بحيرة ناصر ، بوابة إفريقيا والجنوب.

العرضة للتلف، فربما كانت الفلوكة هى "با" من حكموا مصر قديمًا، أو تلك الطيور ذات الرأس الآدمى التي كانت تمثل هويتهم غير القابلة للتلف، و كان مباحًا لها أن تروح و تجىء كما يحلو لها، دون حاجة لأبنية صلبة أو طقوس معقدة لكى تبقى على قيد الحياة.

يقول أحد نصوص الموتى سحيقة القدم:

لم يُقبض عليك، لم تُسجن بأمر القوامين على السموات و الأرض، ابق بعيدًا عن الجسد المسجى في التراب: لا تمكث ما بين مَنْ يحفرون الأرض بالجواريف، أولئك الذين يحرسون أعضاء الجسد. فإنك إله...

حقًا، حين تبحر في النيل عند الغروب، مستمتعًا لما تقوله الريح للشراع و إلى غناء المراكبية، فإن أقل البشر الفانين شأنًا سيشعر أنه أوزيريس نفسه: "هأنا آخذ لذتى في هذا القارب. هأنا أزدهر فيه وأزهو. آكل فيه وأشرب. وأمارس فيه الحب. كل تعازيمى السحرية تعمل بنجاح هنا". و حين نبلغ أسوان نكون قد بلغنا لآخر مصر، ولكن إذا كنا قد سافرنا بقلب منفتح و عقل نقى، لن يكون لهيمنة مصر علينا نهاية.



Further reading

Guillemette Andreu, Egypt in the Age of the Pyramids (London, 1997)

Amelia Edwards, A Thousand Miles up the Nile (London, 1877)

I.E.S. Edwards, The Pyramids of Egypt (London, 1961)

Nicholas Grimal, A History of Ancient Egypt (Oxford, 2000)

Zahi Hawass, Secrets from the Sand: My Search for Egypt's Past (London, 2003)

Herodotus, Histories, tr. George Rawlinson (London, 1858; reprinted 1996)

Jill Kamil, Luxor (London, 1973)

Jill Kamil, Saqqara (London, 1978)

Jill Kamil, The Ancient Egyptians: Life in the Pyramid Age (Cairo, 1997)

Mark Lehner, The Complete Pyramids (London, 1997)

Dimitri Meeks and Christine Favard-Meeks, The Daily Life of the Egyptian Gods (London, 1999)

Ian Shaw, The Oxford History of Egypt (Oxford, 2000)

Henri Stierlin, The Pharaohs, Masterbuilders (Paris, 1995)

Strabo, The Geography, tr. H.L. Jones (London, 8 volumes, 1917-32)

Joyce Tyldesley, Pyramids: The Real Story behind Ancient Egypt's Most Ancient Monuments (London, 2004)

Miroslav Verner, The Pyramids: their archaeology and history (London, 2002)

إن المصور الذي ينظر إلى قالب فني شائع ويعرضه لنا في ضوء جديد هو مصور من النوع النادر. ولكن بالاضافة لذلك صور شريف سنبل المذهلة تكشف لنا الكثير وتظهر لنا عيناً شديدة المرونة والخفة، كثيراً ما تجرد الأشكال إلى ألوان ديناميكية قابلة للانفجار، فحتى حين يركز سنبل على صور أشياء جامدة فإنه لا يعطينا إحساساً بالجمود إنما يعطينا إحساساً بكمال الحركة.

آنا كيسيلجوف

نيويورك تايمز





الهيئة المصرية العامة للكتاب


ISBN# 9774196902
6 221149 001602